رواية

العوسج

الجوهرة الرمال

t.me/twinkling4

العَوسَج

ⓒ مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الرمال، الجوهرة ركيب
العوسج/ الجوهرة ركيب الرمال - ط ٢ - الدمام، ١٤٤٤ هـ
ردمك: ٨-٨٧-٧٣٩١-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٠٣٩٥٣١، ٨١٣ ١٤٤٥/٨٧٧٦
رقم الإيداع: ١٤٤٥/٨٧٧٦
ردمك: ٨-٨٧-٧٣٩١-٦٠٣-٩٧٨

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: **أشـرف غـالـب**
الحقوق محفوظة لصالح: **مكتبة ضَـاد الإلـكترونية**

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع
الموقع الإلكتروني:
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

مسؤول النشر:
للتواصل
0597777444

المملكة العربية السعودية - الدمام

لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي **00971569767989**

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي **00201120102172**

الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

العَوسَج

رواية

الجوهرة الرمال

joalremal

Jo_alremal

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

ميساء طه.
عَزة المحمد.
أشرف غالب.

المقدمة

لا أحد يقرأ المقدمات، لم أحظَ بمقدمة لكل ما حصل لي،

لقد كان كل شيء يأتي دون علم مسبق ولا استئذان، حتى أنني لم أحظَ بخاتمة تليق بي..

جبران يافا

قتلت أمي، أستطيع النوم الآن..

.

لقد قتلت أمي، دخلت عليها بغرفتها وهي هادئة كعادتها متمددة على سريرها الطويل وأرجلها تصل لمنتصفه، غطاؤها يغطيها لنصف بطنها الكبيرة المستديرة، هي دائماً تترك مسافة كافية ما بين صدرها واللحاف ربما تخاف الاختناق، تغط بنوم عميق وتصدر صوت شخيرها المعتاد، لقد عانت أمي طويلاً من مشكلات بالرئة والتنفس، حتى أن طبيبها نصحني أن أعود بها للمنزل لتموت بسلام، أسطوانة الأكسجين ملازمة لها، رائحته تفوح بالمكان، لقد كانت متعبة جداً وكل يوم جديد يعني يوماً صعباً آخر ومشكلات أخرى.. اقتربت منها فصدمت ركبتي بحافة السرير، صحت وهي تنظر لي، لقد فقدت مؤخراً قدرتها على الكلام، كانت مجهدة جداً، لكن نظرتها كانت تريد الاطمئنان عليّ خشيت أن أكون أصبت بأذىً تبسمت أطمئنها وجلست على حافة السرير بالقرب من كتفها حتى غفت عيناها كنت أنظر لها مباشرة، لتجاعيد وجهها لنبضها الواضح جليّاً برقبتها، لحبة الخال السوداء بمنتصف وجنتها، لأنفها الكبير وشفاهها النحيلة، أخذت الوسادة التي بجانبها والتي لم ينم عليها والدي منذ أربعين عاماً وغاب بمصير مجهول لا أعرف عنه شيئاً هي لم تغير غطاء الوسادة منذ وقت رحيله بحجة أنها تحتفظ برائحته.. أمسكت الوسادة المتكتلة بصوفها المهترئة من منتصفها وكأن رأس والدي محفور بها أحكمت قبضتي على جانبيها ووضعتها فوق وجه أمي وضغطت بلطف ثم شعرت بتحرك رأسها وزدت الضغط وأنا أزفر نفساً حبسته بصدري وبدأت أفرك الوسادة على وجهها لم تقاوم طويلاً، كانت ضعيفة ومريضة، لحظات وارتخت يداها اللتان كانتا تمسكانني من معصمي وكأنها تستنجد بي، رفعت الوسادة أنظر لها، عينان جاحظتان وشعر أحمر مختلط بالبياض منكوش متطاير ووجه أبيض خال من الدم

وشفاه مزرقة بفم مفغور، احمرار حول فتحات أنفها، لقد توقف ذاك النبض الذي يرف برقبتها وجلدها صار قاسياً وبارداً، مررت أصابعي بلطف على عينيها، أغمضتهما ثم رتبت لها شعرها المتطاير رتبته على جنبها الأيسر وأنا أميل برأسي للجهة اليسرى وكأني أنظر لها من هذا الجانب للمرة الأولى، همست: أعرف أنك طوال كل هذه السنوات تصففينه على الجنب الأيمن وقد انفرج الخط الأبيض وصار واضحاً جليّاً بهامة رأسك طوال هذه السنين لكن لا بأس يبدو الأيسر أجمل بكثير ولائقاً عليك يا حلوتي..

تبدين أجمل بلون الشفاه هذا ثم لون وجهك الخالي من الدم جديداً، كوجه الملائكة حين تود أن تصطحب أحداً معها للسماء، شربت نصف كأس الماء الذي بجانبها ويبدو أنها شربت النصف الأول، نصف رحل للسماء ونصف بقي بالأرض لينبت من جديد ويستمر بالشقاء.. نهضت بكل هدوء، سحبت اللحاف إلى صدرها ورتبته جيداً بعد أن أدخلت يدها تحته ولحفت أطرافها القصيرة.. لا بأس إن وصل اللحاف إلى هنا، لن تخافي الاختناق الآن يا أمي. مشيت بخطوات بطيئة وتملؤني نشوة غريبة، خرجت من غرفتها وقبل أن أغلق الباب نظرت لها مرة أخرى من بعيد وقلت لها..:

الآن يمكنك الثوم براحة بعد تعب كل هذه السنوات

أحبك يا أمي..

اسمي جبران في العقد الرابع من عمري، لا شيء يستحق أن أذكره عني، لا سيرة تستحق أن أسردها، شخص عادي لكنه ولد ومعه لعنة تسكنه، أشعر أن هناك سفاحاً يسكنني، يتمدد بداخلي يشتهي القتل، لا ينام كثيراً ويعاقبني بالأرق، علاقتي مع ذاتي تشبه جلوسك بغرفة وحدك، لا تفعل شيئاً سوى أنك تتأمل المكان وتتجول بكل متر تتفقد كل زاوية لتنشغل عنك، تخاف أن تكون وحدك ومعك، أسمع صوت طنين يشغل حيزاً بداخلي كلما حاولت الصراخ، لهذا أنا شخص هادئ جداً، أكره الوحدة ولكني اعتدت عليها، أنعزل حينما يدفعني الجميع لهذا، أنت لا تدرك ما معنى أن تولد كإنسان وتتحول يوماً ما لمسخ.. لا يراه سواك، رجل دميم الخلقة طويل القامة بشعر خفيف يحارب الصلع، لقد انتصر مؤخراً واحتل بقعة في منتصف رأسي، لدي وجه طويل أراه كلما حاولت أن أغلق أزرار قميصي، شفاه نحيلة ورثتها من أمي يعلوها شارب خفيف بشعر متفرق، بقع بنية منتشرة فوق أنفي المتضخم من الأعلى، الجميلات لا يروق لهن مواصفات رجل مثلي، لهذا أنا أحب الجميلات ولا أقترب منهن.. أصابع يدي غليظة مؤذية بالمصافحة، والخنق أيضاً، أنظر دائماً للعنق قبل الوجه، أراقب النبض وأشتهى أن أضع أصابعي عليه لعلي أسكته فقط..

اليوم الأول لاستقبال المعزين لم يشك أحد بطريقة موت أمي، فالجميع يعرفون أنها تعاني منذ سنوات، والجميع يتمنون لها نوماً طويلاً وبسلام، حتى لم يسألني أحدهم هل توفيت في المنزل أو في المستشفى، لقد اتصلت على سام الرجل الوحيد الذي يعرفني جيداً ولا يعرفني جداً.. أخبرته بصوت محشرج ومخنوق أن أمي توفيت أحتاجك هنا.. في الواقع لم أحتجه لشيء مُلح لكن فضلت أن يقوم هو بالاتصال على سيارة

الإسعاف ويتكفل بنقل جثمانها، فلقد كنت متعباً جسدياً ومنتشياً روحيّاً وكأن هناك أحمق يرقص بداخلي دون توقف..

كان يوماً منهكاً لي، للمرة الأولى أشعر برغبة في النوم وهذا لم يحدث منذ أشهر مضت..

انتظرت أن ينتهي ذاك اليوم الطويل المليء بوجوه العجزة وهي تقدم التعازي وتخاف الموت، نسي الجميع والدتي في مرضها لم يسأل عنها أحد ولم يزرها أحد والآن أرى وجوها تغيرت وحتى أني لم أتعرف عليها، يقال إن حضور العزاء يؤجل قدرك، لهذا كبار السن هنا يركضون نحو العزاء أكثر من مناسبة لحضور فرح..

الجميع كانوا يتظاهرون بالحزن ويحاولون أن يذرفوا دمعة ليجاملوني بها، وأنا أنظر لهم وأتمنى أن أفعل هذا أيضاً أحتاج أن أجاملهم بدمعة أو أي شعور آخر..

لكني فضلت التحديق بوجوههم وبصمت، حتى انسحبوا واحداً تلو الآخر بهدوء، والبعض يتمتم كلمات خشية الموت وربما لأنه يشعر بقرب أجله لهذا هو يخافه..

بعد أن خلت المقاعد من المعزين وقد كنت أرقبها واحداً تلو الآخر وكأني أقتلعهم منها، لم يتبقَّ سوى الأنوار المعلقة التي استأجرها سام بالساحة القريبة من منزلنا، والأغطية الحمراء وصوت القارئ الذي يتلو آيات من القرآن ليكتب أجرها لوالدتي ولتقشعر جلود الحاضرين معها، وأنا كنت بعيداً عن هذا كله لقد كنت أقاوم النعاس تلك اللذة التي لم أتذوقها منذ

فترة طويلة، جسد مثقل وأرجل تجر بعضها بعضاً وبيد ثقيلة أيضاً كتبت رسالة للجميع بنصف عين مفتوحة والأخرى مغمضة وكأن ضوءاً مسلط عليها لكنه النعاس، اعتذرت عن استقبال العزاء بالأيام القادمة نظراً لظروفي الصحية، وهذا خبر مؤسف لمن يخاف الموت، فالقليل يموت بحينا هذا فشبح الموت صار عاطلاً رغم أنه يقف على رؤوسهم بكل ليلة.

أريد أن أنام، لم يحدث أن شعرت بتلك الرغبة الملحة بالنوم، لقد زرت مؤخراً كل الأطباء بمنطقتي وتواصلت بمن هم خارجها أسألهم عن حل لما أعاني منه من الأرق الذي كاد أن يفتك بي، حتى أنني بدأت أصدق أكاذيب العطار الذي جعلني أتذوق كل الأعشاب المرة والحارقة والمسمومة أيضاً بحجة أنها ستجعلني أنام، كنت أريد ساعتين متواصلتين لا أكثر، أريد نوماً دون كابوس يقتلع رأسي ودون حرب أراها أمامي وأقزام يتقافزون فوق رأسي وهلوسات لا تنتهي، أشعر أني أحمل السقف فوق رأسي، لقد تخدرت أطرافي وضعفت قواي، فهل يعقل أنني أفوت هذه الفرصة الملحة التي أتت لي بالنوم!

لم أسدل ستائر غرفتي الغليظة والتي تحجب الشمس وإن كانت تشرق من خلف سريري، لم أطفئ أي منبه يمكن أن يقطع غفوتي، كنت أشتم رائحة أحلامي قبل أن أغفو، وحتى لم ألقم كلبة جارتنا العجوز حجراً لتكف عن النباح تحت نافذتي مثلما أفعل في كل مرة أحاول فيها النوم، لم تتوقف عن النباح منذ ليلة الأمس وكأنها تشتم رائحة موت أمي بأطراف ثوبي، أريد أن أنام فقط.

تمددت على سريري بالعرض وتركت أطراف أقدامي تتدلى خارجه لقد كانت تلك اللحظة التي أقاتل وربما أقتل من أجلها.

سمعت صوت شخيري، شعرت باتساع فمي وهو مفتوح، واللعاب الذي يلتصق على وجهي حينها، كنت نائماً كأسير حرب سمح له بأخذ غفوة بعد رحلة شقاء وتعذيب، كطفل مشرد عانى لأيام من الجوع وأخيراً امتلأت معدته ونام، كغريب وصل لبلاد وضاع بها، وأخيراً وجد خارطته واستدل على طريقه ونام..

نمت ثلاثة أيام متتالية، ثلاثة أيام أشرقت شمس بها وغربت دون أن أشعر بهذا، لقد وجدت رسائل كثيرة تقدم واجب العزاء ولكن لم أجد سوى اتصالات من صديقي سام، لقد نمت يوم الأحد واليوم هو مساء الثلاثاء.. كل ما أشعر به هو وجع بجسدي أكتافي ورقبتي وأطراف أصابعي، يشبه ذاك الوجع عندما تكون مستلقياً على أرض عشبية خضراء مستمتعاً وأنت تنظر للسماء لكن جسدك غير معتاد على هذا فيشكو وجعاً ويذكرك بالألم لتتذكر حماقة وجودك البشري.

لا أعرف هل كنت أتقلب خلال نومي؟ هل أنهض لأقضي حاجتي كما كنت أفعل كل مرة بعد كل نصف ساعة أنام بها، هل قمت مفزوعاً من كابوس أصرخ ؟ هل رأيت حلماً مثل ذاك الحلم الأسود الذي اعتدت رؤيته؟

لا أعرف لقد كان حلماً أبيض تماماً لا شيء فيه، لا أناس لا أصوات لا حياة ولا عوالم أخرى..

لقد صحوت وكأني قادم من أرض تشبه الجنة لقد كنت منعماً، عرفت ماذا يعني أن تكون بحاجة لنوم كهذا، أود أن أدفع كل ما أملك من أجل هذه الليالي التي مضت، ثم إني قمت جائعاً بشهية مفتوحة ونفسية مرتاحة، أكلت من بقايا أكل محفوظ مبرد وشربت الكثير من القهوة، تناولت عدداً من قطع الشكولاتة التي كانت تحبها أمي قبل أن تصاب بالسكر وتُحرم منها.

لم أشعر بتأنيب الضمير للحظة على موتها، حتى أني دخلت غرفتها ورتبت سريرها وتخلصت من أدويتها وأسطوانة الأكسجين الكبيرة ذات الرائحة القاتلة، كل هذا ولم يرجف لي جفن، كنت فقط أشعر بخفقان نشوة وحماس لا أعرف ما سر ارتباطه بما حصل، لقد كان قلبي يرقص فرحاً وكأنه يغني أغنيته المفضلة للتو على وقع خفقاته..

لقد كانت أمي معذبة بحياتها ما بين ألم فقد والدي وذكراه التي أوجعتها وحتى وفاته التي لم تصدقها لأنها لم تستلم جثمانه ولم تدفنه، عاشت ما بين ترقب وانتظار وما بين مرضها وممرات المستشفيات التي تقضي بها ساعات طويلة قبل أن نجد لها سريراً فارغاً تنام عليه أسابيع أخرى لتعود للمنزل وتنتكس من جديد..

لقد عجلت فقط براحتها الأبدية، أنا لا أشعر بالذنب مطلقاً لقد كانت بحاجة لهذه الموتة..

اللعنة ستعود حتى وإن مضى عليها عام هي
كانت فقط تغط بنوم عميق وحان وقت الصحو

- لقد تأخرت مجدداً يا جبران هل عاد لك الأرق مرة أخرى؟

- نعم.

أقولها وأنا أفرك رأسي بأطراف أصابعي أجمع حواجبي وأفرقها.

- الغريب في الأمر يا جبران أنك من عام لم تشتكِ منه منذ وفاة أمك تقريباً.

توقفت عن دعك رأسي، التفت إليه وبعين محمرة وشعر منكوش ووجه مثقل وجه خرج للتو مهزوماً من معركة طويلة، لقد أدركت للتو ماذا يعني سام، فهو صديقي منذ سنوات مضت ويكاد يكون هو الوحيد الذي بقي معي، لأنه يعرفني جيداً وخاصة منذ أن ساءت حالتي مؤخراً وأصبت بالأرق، سام أتحدث له بكل شيء وعن كل شيء، كنت أشكو له من الأرق ومن محاولاتي للتغلب عليه، أحكي له عن الأحلام التي تراودني، عن مواعيد علاج أمي التي تجعلها تغط بنوم عميق وصرت أعطيها حبة وأبتلع أنا ثلاثاً وبلا جدوى، عن تكدس الأدوية المنومة بدرج غرفتي، عن وجوه الأطباء الذين زرتهم، عن حقيقة شهاداتهم المزيفة التي عجزت عن إيجاد حل لشخص ضعيف مثلي كل مشكلته هي الأرق، يعرف سام حلمي وقت الغضب لأني ما عاد لي طاقة لنقاش إضافي، عن صبري على المصاب بكل كارثة روحية تمر بي عن عدم مبالاتي وعدم اكتراثي، حتى لتأخر زواجي لهذا السن..

كلمة سام جعلتني أتذكر أن اليوم هو الذكرى السنوية لوفاة أمي، خرجت مسرعاً وهو ينادي:

- إلى أين ستذهب يا رجل؟

- سأعود حالاً وريا لا أعود اليوم.

- لكن ماذا سأخبر المدير بحال لو سأل عنك أنت تعرفه جيداً؟!

- أخبره أني سأزور قبر أمي وقريباً قبره بمشيئة الله..

يضرب سام أكفه بعضها ببعض وهو يبتسم لقد تعبت وأنا أضع لك الأعذار يا جبران، وبكل مرة يلومني المدير لأني أنا من قدمك لهذه الوظيفة.

بكل مرة يندم سام لمعرفتي وأيضاً لتقديمي لهذه الوظيفة، لكني لم أكن يوماً كما أنا عليه، لقد كنت شاباً مجتهداً بعملي السابق لولا أنني رميت كوب القهوة بوجه أحد الزملاء وسبب له حرقاً بسيطاً، بعد أن اتهمني بقتل هرة له لم أكن أنوي هذا ولا أعرف ما الذي دفعني لذلك، لكنه أراد أن ينتقم مني ويطردني من العمل، إنه متحامل علي بعد أن خنقت قطة كانت تموء عند درج السلم المؤدي للمكتب، وبكل مرة أدخل للعمل أجدها تمسح بجسدها بين أرجلي، وهذا يثير استفزازي، وذات يوم مسحت على رقبتها بلطف حتى التفت أصابعي بنشوة حول رقبتها تماماً ثم خنقتها حتى سمعت تكة عظام رقبتها تحت أصابعي، أحسست بنشوة عارمة وسعادة ليوم كامل، لم أكن أنوي قتلها لكن لا أعرف ما الذي دفعني لهذا، وكأن أصابعي تعرف طريقها جيداً لرقبتها وتعزف على رقبتها برقصة خفيفة حتى أني أسحب نفساً عميقاً مع هذا الشعور، للأسف كان هناك شاهد وهو الحارس اللعين الذي يقف عند الباب ولقد

أخبر صاحبنا بما فعلت، لقد كان يحب قطته النتنة تلك ويجلبها معه للعمل لأنه لم يجد من يرعاها بالمنزل، ولقد قمت أنا بإراحته وإراحتها أيضاً من وجودها تحت السلم لتمسح بجسدها وتتعاطف مع المارة، وهنا تم فصلي من عملي، لكن أذكر أني نمت عميقاً تلك الليلة.. عميقاً دون مهدئات ولا حتى أدوية.. عميقاً ودون أحلام..

غير أني فوجئت صباح اليوم التالي أن الشوارع قد خلت تماماً من القطط.. ربما لأني كنت أبحث عنها.. لا أعلم..

وصلت إلى قبر أمي بمنتصف الظهيرة والشمس تتبعني لتقف فوق رأسي مباشرة وكأنها تعاقبني لهذه الزيارة المتأخرة، للمرة الأولى أزور قبرها منذ وفاتها، لقد كانت مدفونة بمقابر خارج منطقتي، مقبرة بعيدة وربما منسية، لقد كانت تخبرني دائماً أنها تود أن تدفن هنا، حيث دفنت عمتها التي تولت تربيتها ونشأت بمنزلها، لقد نشأت والدتي يتيمة مثلي، لكني أفضل حالاً منها لأني حظيت بأحد والدي بينما هي لم تحظَ بأحد منهما، دفنت عمتها بهذه المقابر البعيدة وكانت تزورها أمي بين حين وآخر، وكأن لا أحد يزور المقبرة بالكامل إلا أمي، وربما هي من يعرف أنها مقبرة من الأساس، لقد كان يعلو قبر أمي القاذورات ومخلفات للقطط والكلاب أيضاً، ربما كانت القطط تشكو لها جرمي أيضاً أكياس للنفايات وعلب بلاستيكية متناثرة وصلت إلى هنا بفعل الرياح وعوامل المناخ، حاولت تنظيفه قدر المستطاع، أحسست أنها لن تستطيع سماعي وكل هذه القاذورات تعلو قبرها وهي التي كانت تحرص على نظافة غرفتها ولا تهتم لغرفتي، لقد قمت بتنظيف سطح قبرها لأحكي لها ولعلها تسمعني كمكافأة لي على تنظيف قبرها..

(رسالة عارية)

أهلاً أمي أنا جبران لا أعرف إذا كنتِ غاضبة مني الآن.. هل غضبك يشبه ذاك الغضب حينما كنت أقتل صيصان حظيرتك؟ أو غضبك حينما أقتل القطط الصغيرة بحينا، أعرف أن غضبك قصير المدى وأظن أنها أطول مدة مرت على غيابي عنك وأظن أنكِ سامحتني.

أنا أريد لك هذه النومة الهانئة بعيداً عن العقاقير الطبية وأسطوانات الأكسجين المحمولة، وأسرة المستشفيات الحديدية برائحة وسائدها النتنة ومعاملة الممرضات لكِ لأنك طيبة أكثر من اللازم وكم كنت أقولها لك، إن طيبتك هذه هي ضعف لهذا لا يهتمون بك، لقد تركوا آثار الإبر زرقاء بذراعكِ، ونسوا وقت علاجكِ، وتأخروا كثيراً عن موعد غدائك، ونمت ذاك اليوم بلا علاج ولا غداء ولم تشتكي لأحد، حتى أنا لم تخبريني بهذا لكني عرفت من رائحة فمك وتغير لون عينيك وبقعة داكنة بيدكِ، لقد كنت أعرفكِ دون أن تخبريني بشيء، عرفت كل شيء حينما كنتِ تسمحين لي بهذا، قبل أن تتركي فراشي وتنامي بعيداً، قبل أن تصرخي بوجهي في كل مرة أسألك فيها عن بكائكِ وعن والدي، قبل أن تتوقفي عن ضربي بعد ما صرت أعرف كيف أهرب منكِ وأختبئ.

لم أدخل غرفتكِ بمنزلنا منذ وفاتكِ فأنا أعرف كم يغضبك هذا، وأعرف العقاب الذي يحل عليّ كلما حاولت فتح أحد أدراجكِ، وأيضاً درجكِ الخشبي الصغير ومفتاحه المعلق بخيط صوف على رقبتك منذ أن عرفتكِ، لم أفتحه أيضاً والمفتاح دفنته معك، فاي سر كنتِ تخفينه هو

مات معكِ يا أمي، أنا لا أنبش الأسرار، وأفكر ببيع غرفتكِ لأي شخص يفكر بالموت، فلا أحد يشتري غرفة لميت سابق..

كل ما كنت أودّ معرفته هو من تكون تلك المرأة التي جاءت لكِ وغيرت كل شيء بزيارتها، وكأنها بدلت بك امرأة أخرى، امرأة لا تشبه أمي التي أعرفها، أي حديث دار بينكما ليجلب لي كل هذا..!

أنا مُتعب يا أمي، ولا يحق لي أن أشكو لكِ بحياتك فربما هي فرصة جيدة أن أتحدث لك الآن وأنتِ ترقدين بفضلي بهدوء وراحة..

لقد نمتِ أخيراً يا أمي فشكراً لكِ، لعام كامل أنا أنام دون أحلام، حلم أبيض عميق، أغط بالنوم لساعات طويلة، لقد عرفت أن ما فعلته لكِ جلب لي كل هذا، والآن عاودني الأرق، فكيف أقتلكِ من جديد!

وبكى جبران بكاء لم يبكِه على أحد من قبل وحتى بوفاة أمه، لقد بكى وكأنه يجرب البكاء لأول مرة، بكي بصوت العويل وقهر الأرامل بالحروب، بكى بحرقة يتيم جائع، بكى بدمع غريب نُفي من وطنه، بغصة طفل يبيع مناديل في الشارع، بوجع عجوز دون عائل، بصدمة رجل مسن استشهد ولده الوحيد، لقد نام بجانب القبر يرتجف ويحاول أن يحتضن نفسه، يزم أرجله تجاه صدره ويدس رأسه في نحره، كانت كل أضلعه ترتجف معه وكل أطرافه متجمّدة وكأن الموت يسري بدمه الآن، لقد جف ريقه فجأة وأحس بدوار يتبعه نوبة صراخ رفع رأسه الممتلئ بالتراب للسماء وفتح عينيه الباكيتين وذراعيه، وبدأ يصرخ بفم متشقّق ودون توقف وكل ما يردده: خذني إليك يا الله، خذني إليك عارياً من الحياة، عارياً من

الأحلام والأمنيات، كل هذه الأرض لا يوجد بها مكان واحد يتّسع لرأسي.. أريد أن أنام يا الله.

يد امتدت لجبران تزمه من عند كتفه وتحاول أن تخرجه من المكان، تسنده وتنفض غبار المقابر من شعره وفمه..

التفت لينظر من هذا وإذا به صديقه سام.

- ما الذي تريده مني يا رجل؟ يقولها جبران وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه المتسخ.

- لنعد لبيتك قم.. الموت حق يا صديقي فلا تجزع.

يضحك جبران بصوت عالٍ والدموع لا تزال تحتفظ بخط سيرها على وجهه المليء بالغبار.

ينظر له سام بتعجب ويقول في نفسه: لعله أُصيب بالجنون!

يفتح جبران أكفه ويقربها أمام وجه سام ويقترب بوجهه ليضع عينيه أمام عيني سام ويقول بصوت منخفض قد بح من الصراخ:

- بأكفي هذه قتلت أنا أمي يا سام!

- لا تقل هذا جميعنا نعرف كم كنت تحبها.

- أنا قتلتها يا سام.

- لا تلم نفسك فلقد قدمت لها كل شيء تستطيع فعله يا صديقي.

- أنا قتلتها!

يقولها جبران وهو يصرخ واللعاب يتراشق من فمه.

يضع سام كفه على فم جبران يحاول إسكاته وهو يتلفت حوله:

- اسكت يا رجل ما الذي تقوله أنت!

- أقسم بالله أقسم برب كل هذه الجثث التي رحلت للسماء، بربي وربك أنا من قتل أمي.

يرفع أكفه للسماء ويقول: أليس كذلك يا الله؟ ألست شاهداً على هذا؟! عاقبني بالنوم يا الله..

لقد أخبرت سام الحقيقة كاملة أخبرته بسر سيقودني لحبل المشنقة، لقد فرغت كل حمولتي وأنا أجلس على مقعد سيارته ولا أعرف هل سيعيدني للمنزل أم سيلح عليه ضميره ويرسلني للسجن، كنت أتكلم دون أن أرفع رأسي ليس أسىً ولا ندماً ولكن كنت مثقباً من حجم رأسي ومتعباً من كل شيء يجلب لي هذا الأرق.. لهذا كنت أحكي له التفاصيل الصغيرة لعلّي أفرغ رأسي وأستطيع بعدها النوم..

أخبرته كيف تسلّلت لغرفة أمي وهي نائمة كملاك رحيم ينتظر الشفاء، كيف جلست بجانبها أرقب نبضها وعروق يديها وتجاعيد وجهها ولا أخجل من هذا كله، لقد كان نبض رقبتها يرف بطريقة مغرية جدا تجعلني أشتهي إيقافه، كيف بلحظتها رفعت وسادة أبي ووضعتها فوق وجهها لتنام طويلاً دون عودة، أخبرته عن النشوة كانت تملؤني حينها، عن

الشيطان الذي يرقص بداخلي، عن الأيام الثلاثة التي نمتها دون الشعور بشيء، عن الأرق الذي زال بمجرد أنني فعلت هذا، أخبرته عن صيصان أمي والقطط المولودة حديثاً والقطة الكبيرة مؤخراً ومتعتي بكسر عظام رقابهم ودعسها بأصابعي وكيف كنت أبتسم في لحظتها.. عن الشعور الذي ينتابني لحظتها، عن الراحة التي أشعر بها، أخبرته أني أبحث عن حيلة جديدة لأنام.. عن رصيد نوم لأيامي القادمة عن شح الظروف التي تهب لي ضحية تستحق الموت بسلام..

التي لقد طلبت منه دون توسل أن يقتلني لأتوقف عن فعل هذا، لقد أخبرته مهدداً أنه ربما يكون هو التالي وهو من سيوفر لي رصيد نوم جيداً لأيامي القادمة، أخبرته هذا ليس مازحاً وإنما جاداً، كنت أتكلم معه دون توقف وحتى دون أن ألتفت إليه، لكن سام كان جالساً مصدوماً مما يسمع وكأنه يتعرف على شخص جديد للتو.. لقد قال لي إن نبرة صوتي تغيرت وأنا أتكلم عن القتل ونظرة عيني تلمع وأنا أصف كيف قتلت أمي وإن يديّ كانتا مرتخيتين وهادئتين وإن وجهي ناشف تماماً لا دمع ولا تجاعيد قهر ولا ندم، تلك الملامح التي تجعل الآخرين يصدقوننا حتى لو كنا نكذب، لقد كانت عينا سام تنظران لي بقرف وخوف أيضاً، كيف لرجل مسالم أن يتحول إلى قاتل متسلسل؟!، كيف لدوافع شر أن تسكنه فجأة وهو الذي يخاف أن يحبس طيراً في قفص، كيف لذاك الطفل الذي لم يكن يشبهه أحد من أقرانه في هدوئه وتفوقه أن يتحول لرجل شاخ فجأة بشعر أبيض وجسم نحيل وشفاه مزرقة وأدمن التدخين والوحدة والقهوة، أوصلني لمنزلي وظل جالساً أمامي صامتاً يتأملني للمرة الأولى وربما يجهز ما الذي سيقوله ليردعني وربما ليُخيفني وأن عودتي لمنزلي هي فرصة جديدة لي، وهبها هو لي ولم يبلغ عني.

أثناء صمت سام هذا، أخذت سيجارة من علبة السجائر التي كانت على المنضدة بجانبي وكانت الأخيرة وضعتها بين شفاهي وأشعلتها بأكف مرتجفة وسحبت نفساً عميقاً وأسندت رأسي للوراء وقلت له: اخرج الآن.. لقد مات جبران الذي تعرفه، أنا شخص لا تعرفه ويجب أن تخاف منه.

لا تفتح الباب قبل أن تتعرّف على الطارق فكلمة (أنا) يقولها الجميع..

قبل ثلاثين عاماً

جاءت سيدة لزيارة أمي ونحن لم نعتد أن يطرق أحدهم باب منزلنا سوى ثلاث جارات لأمي انتقلت إحداهن لمدينة أخرى والثانية تكرهني لأني أتشاجر دائماً مع ابنها والثالثة لا تحب الزيارات كثيراً، أنا لا أعرف من النساء آنذاك غيرهن لكن هذه السيدة عندما طرقت الباب وسألت من الطارق قالت: (أنا) صوتها غير مألوف لكن عندما تسكن بمنزل لا يطرق بابه أحد بالطبع سوف تفتح لكل طارق أو أنك تخاف صوت الباب، لكني فتحت لها الباب عجوز لا أستطيع تحديد عمرها لكنها تفوق بالعمر عمر أمي أصابعها نحيلة وطويلة ووجهها أيضاً تلبس حجاباً يغطي شعرها بالكامل، لها جبين قصير ووجنة متجعدة وأنف قصير منتفخ تحمل معها حقيبة قماشية سوداء كبيرة أظن أنها فارغة إلا من أشياء بسيطة، كان لون عينيها رماديّاً يميل للخضرة ولها حواجب نحيلة وقصيرة، مسحت على رأسي وتمتمت بكلمات لم أفهمها كانت تتمتم وهي مغمضة العينين، حتى قطعت أمي تمتماتها وصاحت: من أنتِ؟! أشارت بعينها لي، فطلبت مني أمي أن أذهب لغرفتي ربما هناك حديث يخصّني ولكن لا يحق لي سماعه، ذهبت لغرفتي وأنا أنظر لهما، لقد تحدثت قليلاً عند الباب وصحبتها أمي للداخل بخطوات بطيئة، ويبدو أن العجوز هي من دخلت دون أن تسمح لها والدتي بالدخول، وصلت أنا لغرفتي أنا وأمي، وظللت أرقبهما من فتحة صغيرة في الباب، لأني لم أغلقه من الأساس، لم أشاهدهما لكن كان ظلهما معكوساً على الجدار، رأيت هدوء المرأة وثوران أمي وهي تلوح بيديها وكأنها ترفض شيئاً كانت قد قدمته العجوز لأمي وربما تعترض على أخذه، انتهى حوارها مع أمي سريعاً بعد أن تعالت أصواتهما وطردتها أمي من المنزل وكانت تصيح بصوت عالٍ: مشعوذة

وكاذبة عجوز، خرجت العجوز والتفتت على الاتجاه الذي ذهبت أنا منه من ذاك الممر الطويل الذي يؤدي لغرفتنا، لقد وقعت عيناها على عينيّ مباشرة، نظرتها التي أرعبتني وجعلتني أغلق الباب لقد كنت ابن تسع سنوات لكنها استطاعت إخافتي بنظرتها ووقفتها الجامدة رغم نكزات أمي لها من الوراء وهي تطردها، لقد خرجت بالفعل لكنها تركت لها شيئاً مغلفاً جيداً بورق لامع أسود وعليه خيط صوف أصفر، لقد بكت أمي طيلة ليلتها وجعلتني حبيس البيت لأسبوع كامل، وكأنها تخاف من شيء ما سيحدث..

ماذا سيحدث ؟ من يبحث عن طفل منبوذ بلا أهل ولا عائلة، بلا أب ولا ثروة ولا جاه، طفل عادي جدّاً لا يملك شيئاً وكل ذخيرته هي أمه؟ لكن لا يبدو أنها تبحث عني، ولا تتمنى حتى مطاردني أو الحصول علي..

ظننت أنها ربما تكون جدتي للوهلة الأولى لكن لا انتماء ولا شعور يقال إنك تشعر حينما تصادف أحداً من دمك، شعور يشبه الحنين ورجفة بالقلب، أنا اقشعر جسدي لرؤيتها، وفرت أقدامي هاربة، ربما يكون أحد يبحث عني الآن وهذا خيار آخر جلست أفكر به طيلة ليلتي، لا أظن أنه أبي الذي لا أعرف عنه شيئاً سوى اسم يتبع اسمي أحمله معي كهوية إثبات لا أكثر، عرفت بعد ما كبرت أنه مات في السجن وهناك روايات تقول إنه قتل نفسه أثناء سجنه لا أعرف لمَ سجن لأن والدتي لم تخبرني بشيء عنه فكأنها تحتفظ بأبي وبكل ذكراه لها وحدها.. في طفولتي كانت تنتابني حمى بصفة مستمرة وكان لدي شيء من الإجهاد الليلي، كانت أمي تداويني ببعض الأدوية المتاحة بدرج غرفتها، وأغلب الأحيان النوم بجانبها يحل المشكلة، لكن بعد زيارة العجوز صارت أمي تنام وحدها

حتى أفرغت المستودع الصغير بشقتنا وجعلته غرفة نوم لي، وأخبرتني أنني كبرت الآن ولا بد أن أنام وحدي..

قرار أمي المفاجئ ليس فقط بعزلي عن غرفتها وإنما عن أحضانها أيضاً..

لن أنسى تلك العجوز لأنها كانت نقطة تحول لمعاملة أمي معي..

لقد توقفت أمي عن تربية الدجاج بالحظيرة الصغيرة خلف فناء منزلنا، لقد كنت أجلس معظم وقتي بداخلها وكل ما أفعله هو أن أنتظر بيضها يفقس لتخرج الصيصان الصغيرة وأقوم بتك رقابها الناعمة تحت أصابعي وأقتلها، كان ينتابني شعور لا أعرفه لكن هناك شخص ما يضحك بداخلي، يضحك بطريقة هستيرية أكاد أسمعها..

فأخرج أضحك وألعب وأغفو سريعاً بعدها، تجد أمي الصيصان الصغيرة متناثرة وميتة تلمها وهي متعجبة كيف لها أن تموت جميعاً في اللحظة نفسها.. لم تكتشف أمي بعد أني من كان يقوم بهذا لكنها قررت أن تتوقف عن تربيتها وأزالت الحظيرة كاملة..

لم يكن لي أصدقاء بعمري كنت أفضل اللعب مع الصغار.. الصغار الذين للتو يتعلمون المشي وأقل من هذا.. لكن منعتني أمي مجدداً من هذا بعد ما وجدتني أحاول تك عنق طفل وليد جاءت أمي لزيارة أمه لتهنئها بالمولود الجديد وكان نائماً بجانبها بينما هي تشرب الشاهي ومسترسلة بحديث طويل عمّا عانته من أجل إنجاب هذا الصغير، لقد كنت أراقب نبض قلبه الذي كان واضحاً جلياً في رقبته الطرية جداً، لم أتجاوز العاشرة من عمري لكن كنت أبتلع ريقي وكأن هناك وجبة شهية أمامي، كانت يداي

تمتدان نحوه وحدهما لم أكن أنوي هذا هناك شيء يجعل أصابعي تتراقص طرباً لتفعلها، تحسست رقبته الطرية وجمعتها بكف واحدة، فصرخت أمي تناديني، التفتت أم الرضيع مفزوعة لتجدني جالساً بكامل براءتي بجانب رضيعها، لتقول لأمي: لا بأس جبران لن يؤذيه..

عاودت ترشف الشاهي وعينا أمي ترقباني وتطلبان مني النهوض.. لكني أتوق لفعلها، لولا أنها جاءت وأخذت الرضيع ووضعته بحضنها..

لم تسألني أمي عمّا أشعر وبماذا أشعر لكنها تعرف تماماً ما الذي أنوي عليه وماذا فعلت بصيصان حظيرتها، وربما تعرف شيئاً لم أعرفه أنا، كانت تذهب بي لشيخ أعمى يقرأ القرآن على رأسي، كان يسكن بحي شعبي بعيد عن منزلنا، عند باب بيته تستقبلنا ابنته الشابة بغطاء أسود يغطيها وفتحة شفافة من عند عينيها، تأخذ منا ثمن هذه الجلسة، والثمن غير محدد، أي شيء تجود به نفسك، لقد كانت أمي تدس بيدها ورقة كاملة وهذا كان كثيراً ولكنها كانت تظن كلما أجزلت بالعطاء اجتهد هو بالقراءة وشفائي، كان هناك حوش ليس بالكبير ولكنه ممتلئ بالنساء المتشحات بالسواد والبعض معهن أطفالهن، هذا يبكي وهذا يغط بنوم عميق وهذا يحدق بالسماء، لقد كانت وجوه الأطفال بريئة قد سحبت لهذا المكان دون دراية منها أو حتى دون موافقتها مثلما فعلت أمي، ندخل بالأرقام فلكل واحد منا رقم يدل على هويته، لقد كرهت كوني رقم ٧ وأيضاً رقم ٢٢ وآخر رقم وصلت له هو ٦٠، كنت أود أن أحظى يوماً برقم ٥ لأنه رقم الحظ بالنسبة لي، كنت أود أن أحصل عليه لعلها تكون جلستي الأخيرة مع الشيخ أو يموت الشيخ ويؤجل حضوري للأبد.

نادت ابنته الأخرى برقم ٧ وأمي بكل مرة ينادى فيها رقم تأخذ الورقة من يدي وتتثبّت منها، لا تحفظ أمي سريعاً وذاكرتها هشة، لقد كنت أخبرها أنه ليس برقمنا لكنها كانت تصر أن تتحقق بنفسها، خشية أن أكذب عليها ويفوتها الدور.

دخلنا الغرفة وكانت جلسة خاصة حيث إن أمي دفعت مقابل هذا وكنت محظوظاً لأن لعاب الشيخ يكون بوجهي كاملاً ولن يتقسم لعشرة أطفال آخرين، دخلت أنظر للغرفة بسجاد أحمر مرقش بالأخضر ورائحته نتنة تشبه رائحة فرش قديم مبتل بالماء، تشير ابنته بيدها وتطلب من أمي أن تجلس هنا بهذه المنطقة مقابل الشيخ، تمسكني أمي من أكتافي الصغيرة وكأنها توجهني إلى حيث أجلس فتضغط عليها أن أجلس هنا، أنظر لها وللشيخ وأنا خائف، ثم أحاول أن أستدير لأنصرف لكن لا فائدة، أظل ممسكاً بطرف عباءة أمي كحل نجاة أخير..

أمام الشيخ مباشرة، كنت أحدق بشفاه الشيخ الغليظة ولحيته المختلط بياضها والسواد الطويلة وعينيه البيضاوين المعلقتين بالسقف ورقبته المتجعدة، وأنا الطفل الذي يخاف هذه الوجوه التي توحي لي وكأن هذا الشيخ هو شبح عملاق يضع يده الثقيلة فوق رأسي ويثبت أقدامي الصغيرة بركبتيه وأمي خلفي تحاوطني كي لا أهرب.. لقد كان له لعاب مقرف يتطاير بوجهي وصوت غليظ ذو بحة وكأن شيئاً عالق بحنجرته لقد كان مزعجاً ثم رائحة فمه كريهة، انتهت الجلسة وأشار بيده أن اذهبا، أخبرتنا ابنته أنه يحتاج لجلسة أخرى حتى يعرف والدها علتي ومصابي، هذه المرة بكيت طوال الطريق في العودة وتوسلت لأمي ألا تأخذني مرة أخرى.. لكنها في كل مرة تصر أن أذهب، أنا أعرف أن جارتنا

البدينة زاهية هي من كانت تحرضها لفعل هذا، لقد سمعتها مرة تقول إن ابنك يسكنه شيطان رجيم لا بد أن تنزعيه من داخله، ربما أخبرتها أمي بتصرفاتي وربما بكت لها بحال ضعف وأسرت لها بما لا أعرفه أنا، لقد تغيبت عن المدرسة كعقاب مني لوالدتي، فعندما تصر على ذهابي للشيخ كنت أصر على الغياب وأقفل باب غرفتي عليّ، وتظل تحاول بالطرق والتهديد والصراخ والبكاء أيضاً لكني لا أجيب ولا أفتح الباب.. كان يحق لي ألا أذهب لهذا الشيخ، وهي ترى أنه من حقها أن تتصرف بي كوني ابنها وتبحث لي عن علاج لمرض لا أعرفه أنا عن نفسي، وفي أحد الأيام وجدت أنها هي من أغلقت الباب عليّ، عاقبتني بعقابي لها، لقد كابرت وظننت أنها ستفتحه بمجرد أن ينتهي اليوم، لم أبكِ ومرت ساعات وليلة كاملة وغفوت ثم صحوت، وفي كل مرة أمسك يد الباب وأحركها ببطء لأتحقق من أنه فتح أو لا، لكنها لم تفتحه وكنت أحاول مرة أخرى لجوع وعطش وخوف من أني سأموت هنا ورغم هذا لم أنادِ أمي لكن كنت أضع أذني على الباب لعلي أسمع خطواتها قادمة لي، لعلها تحضر لي شيئاً آكله لكن لم أسمع شيئاً..

لقد دفعني الجوع لأنادي: أمي، أمي! وبصوت منخفض

- أمي أنا جائع وعطشان أمي أريد أكلاً وماء.

- لا أحد

جلست أتكئ على الباب وأصبر نفسي وأتمالك غضب جوعي فشعرت بعدها برغبة في قضاء الحاجة فصرخت: أمي أريد دورة المياه!

لا أحد يجيب فصرخت:

- أمي الآن افتحي الباب!.. أرجوك لدورة المياه فقط.

صرخت وركضت في مكاني رسمت دوائر بأرجلي ضربتها بالأرض كثيراً ثم تبللت ثيابي، وسال الماء الأصفر على أقدامي وأنا أنظر له دون القدرة على كفه وإيقافه!

بكيت وبصوت عالٍ:

- أمي، لقد فعلتها وبللت ثيابي لقد بللتها يا أمي!

لا جواب. ضربت الباب بكلتا يدي وقلت لها: أنا الرجل الذي تبول على ثيابه افرحي الآن وأخبري زاهية بهذا لتحتفل معكِ

هنا سمعت صوت بكائها كتنهيدة ثقيلة من خلف الباب..

- أرجوك أمي افتحي الباب. أقولها وأنا ألصق شفاهي بين شقوق الزوايا لعلها تسمعني بوضوح فإذا بصوت جارتنا البدينة زاهية تقول لها:

- لا تفتحي لا بد أن يجوع شيطانه أيضاً ليموت بداخله وينجو ابنك.

فناديت بصوت عالٍ: أمي شيطاني تبول للتو بملابسي وهو جائع وأنا جائع أيضاً.

فبكت أمي بصوت مسموع أكثر.

فتحت لي الباب واحتضنتني وهي تمسح على وجهي ورأسي وجارتنا لا تزال تلقي اللوم بالكلمات عليها وتخبرها أنها لن تقدم لها نصيحة لأنها ضعيفة، صرخت بوجهها أمي وطردتها من المنزل أخيراً.

أظن أن شيطاني الذي تدعيه هي قد انتصر عليها الآن، وسوف يعاود يوماً خصيصاً لها وبطريقة أخرى.

ما بين الحياة والحياة الأخرى
قرار لا تملكه أنت
هناك من يختار لك كيف ستكون الرحلة..

دخلت لمكتبي، لقد جئت في الموعد هذه المرة، مجهد متعب وأحمل فوق رأسي الأرق بكل ما أوتيت من جنون، مجنون أنتظر فقط من يخبرني بهذا.. لقد مضى يومان ولم ألتقِ بسام الأحمق منذ آخر حوار لنا وآخر اعتراف أخذ إجازة من عمله وبقيَ مكتبه خالياً، لم يسألني أحد بعده لماذا تأخرت، ولم يحضر لي أحدهم قهوتي كما يفعل معي سام هذا.. لقد شعرت بغيابه هذه المرة رغم أني أنا من قام بطرده وطلبت منه نسيان جبران بكل حكاياته، أفعل دائماً ما تفعله أمي بعجزها، لا حيلة لها سوى الطرد، رفعت سماعة الهاتف واتصلت عليه وقبل أن يرن أغلقت الخط، وعاودت لعملي وكأنه لن يحضر أبداً.. وأثناء هذا وجدت كوب قهوة يوضع على طاولة مكتبي رفعت رأسي وإذا به سام.. يربت على كتفي ويشد عليه ويبتسم.. ويذهب لمكتبه، لم ينبس بكلمة واحدة، ومر يوم طويل على هذا الحال، لقد كنت أشعر أن سام صديق ثرثار وكثير التدخل والسؤال، فكيف له أن يكون كتلة من الصمت.. ربما يعز عليه أن يكون صديقاً لقاتل.

عدت للمنزل، أحمل معي خيبة فقد لصديق ثرثار، وأفكر بالخادمة الآسيوية التي لم تحضر اليوم في موعدها لتنظيف المنزل، أشعر بالغبار في حنجرتي فلقد كان الأمس يوماً مغبَرّاً عاصفاً، مررت من جانب غرفة أمي لم يتحرك شيء بداخلي تجاه هذا المكان، لم ألتفت حتى للباب المغلق والهواء يأتي من تحته وكان نافذة الغرفة مفتوحة، مررت بطريقة عادية لدرجة أن خطواتي كما هي لم تتثاقل أبداً لوجل وحزن، توجهت للصالة تمددت على الأريكة كجنازة تنتظر المصلين، لقد كان كل شيء يتحرك، الطاولة تطير والمنضدة تعوم بالسقف والثريا هائمة بأنوارها، والستائر متطايرة كل شيء يعوم بالفضاء إلا أنا ثابت مكاني ثقيل جداً

كتلة صخر يضربها الموج من كل جانب، غصن شجرة عملاق يقطع نهراً يعبر الجميع من فوق ظهره، الحيوانات والإنسان والحشرات، لا يستطيع الحراك ولا الشكوى، لقد اقتربت من الجنون لا بد من إيجاد ضحية تحتاج الراحة، ضحية أتعبها المرض وتريد الخلاص، حتى أنعم بنوم هادئ لأشهر قادمة.. من أين لي بها؟

لا أعرف لمَ اشتهيت الوصول للجارة القديمة زاهية، اشتهيت أنها لم تمت وأقوم أنا بهذا، لكنها توفيت قبل رحيلنا من الحي بحادثة حريق بمنزلها، يقال إنها علقت ولم تستطع النجاة، لكني أثق أنها عقوبة هي استحقتها، ربما ثارت عليها كل الشياطين الجائعة والتهمتها بالحرق..

فكرت كثيراً بإيجاد من يستحق الموت، بضحية تخلصني من الأرق وأخلصها من الحياة، ضربت رأسي بكلتا يديّ، شددت شعري مشيت حول نفسي، واهتديت لأن أتصل بمن يختزن سري بداخله ويعرف فضيحتي كاملة، وسمع كل تفاصيلها مني اتصلت بسام ليجد لي مخرجاً..

- أهلاً جبران.

بصوت مخنوق متعب:

- أحتاجك يا سام.

- هل هناك مشكلة؟

- بكيت بصوت رجل مخذول ومتعب، بصوت جرح غائر وموجع، أنين يهتز له الصدر ودمعة متحجرة.

أنا قادم لك اهدأ..

انتهت المكالمة سريعاً، لا أعرف لمَ بكيت لكني بحاجة لحل لتدخل سريع.. دوافع بداخلي أقوى وأكبر من أن أتحكم بها هذا ما قلته لسام بوجهه ودفعة واحدة، أخبرته مجدداً بحكايتي منذ الطفولة، عندما بدأت من حظيرة الصيصان وانتهيت بغرفة أمي، عن النوم الذي أحظى به بعد كل مرة أقتل بها أحداً لكن أحتاج لإنسان فالحيوانات لا تجدي نفعاً، فالنوم الذي أحظى به مجرد يوم واحد لا يكفي ليسد حاجتي إلى النوم.. وأنا أثرثر له وأشكو وبصوت مختنق أبحث من بين نظراته عن تعاطف وحل..

بهدوء قال: غرفة ٢٥٥ بمستشفى البقاء رجل يحتضر منذ أيام، لقد أخبرني أخي نقلاً عن صديق له ممرض يشرف على حالته، لم يزره أحد منذ دخوله المستشفى وأظن أنه وحيد رجل مسن يعاني من أمراض مزمنة كثيرة، ربما ما تفعله سيكون خلاصاً له أيضاً.. إذا انتهيت ممّا تبحث عنه فلا تفكر أن تتصل بي مرة أخرى لأني سأكون شريكك بكل مرة.

تهلّل وجهي والكثير من الأسئلة تحاوطني أريد إجابات سريعة لها.

- لن أتصل بك، لكن كيف سأدخل فقط أخبرني؟

أقولها لسام وأنا أتكلم بسرعة وكأني أريد الآن الذهاب للمكان..

- أخبرهم أنك واحد من عائلته ولن يمانع أحد بدخولك.. لكن لا تذهب الآن، ادرس المكان أولاً، لا تجعلنا نقع جميعاً بورطة سببها غباؤك.

- لست غبياً، وإن ارتكبت حماقة يوماً ما فستكون أنت سببها فلا تقلق.

أقولها لسام وأنا منتشٍ، فلقد اقترب موعد وليمة دسمة.

منذ أن خرج سام وأنا أجهز نفسي لهذه الزيارة، أنا لست قاتلاً أنا رجل مسكين يسكنني سفاح مرعب يعاقبني بالأرق ويأمرني بالقتل هو من يدفعني لهذا، أصبحت قاتل نوم متسلسلاً دون رحمة ولا شفقة، لكن رحمتي هي بتخليصهم كمثل هذا الرجل البائس الذي ينتظرني كي يرحل بسلام..

لكم رحمتكم وبمقياسكم أنتم أما عني فكيف أرحم أو أعطف على شخص لم أعرفه! وأنا من فعلتها بأمي سابقاً!

أمام المستشفى أوقفت سيارتي، أطفأت محركها وقبل أن أغادرها تفحصت وجهي بالمرآة، رتبت شاربي المتطاير، نظرت لوجهي الشاحب وعينيّ المتورمتين الأجفان، هدأت من روعهما وقلت:

- ستنامان اليوم طويلاً أعدكما بهذا، نزلت عاري اليدين بدون أي أداة تعين قاتلاً ينوي إنهاء حياة أحدهم، مشيت بخطوات عجولٍ بين الممرات وكلما نظر أحدهم لوجهي التفتُّ للجانب الآخر، كنت حريصاً ألّا يحفظ أحد ملامحي حتى لا أكون مشتبهاً به، لم أسأل عن رقم الغرفة كنت أتذكرها جيداً وها أنا أمامها الآن، وضعت يدي على مقبض الباب بهدوء وفتحته، واجهتني الممرضة تحمل بيدها جهازاً لقياس الضغط، تبسمت لها وردت بوجه عبوس، لم أكترث لهذا، كانت الغرفة باردة ستائر مفتوحة والغروب قد حان، تبقى ساعة واحدة لانتهاء الزيارة، أنظر

للساعة المعلقة على جدار الغرفة بيضاء مدورة بعقارب سوداء لامعة ومطبوع عليها اسم المستشفى وشعاره بخط أخضر بمنتصفها، صوت تكّات العقارب مسموع أنظر وأقول: لن يستغرق الأمر أكثر من دقائق، دقائق صامتة وسوف يعلو بعدها صوت كل شيء ولن يسمع أحد صوت عقاربك..

على السرير رجل بنهاية التسعين من عمره فاغر فاه أصلع الرأس إلا من شعرات بيضاء على جوانبه حواجب غليظة تشبه حواجب الشيخ الذي كان يقرأ على رأسي إلا أن هذا له عينان براقتان صغيرتان رغم تعبهما إلا أنهما تتبعانني بنظراتهما بثقل منذ أن دخلت للغرفة، أنبوب يخرج من فمه النحيل وأنبوب آخر بفتحة أنفه الكبير، الأسلاك في كل مكان بجسده، وكمامة الأكسجين تتدلى من عمود بجانبه، أعرف هذه الكمامة حتى أني أشتم رائحة الأكسجين بأنفي الآن، لقد امتلأ صدري منها بكل مرة تضعها أمي وأكون بجانبها، غثيان أشعر به وربما رغبة للتقيؤ يداي ترتعشان، ابتسامتي مرتعشة أيضاً سحبت الكرسي الوحيد في الغرفة واقتربت منه جلست بجانبه من الجهة اليمنى كنت أود أن يموت وهو على هذا الجانب. أمسكت بيده وضعت كفه بين راحتي مسحت على أكفه المتجعدة الباردة جدّاً، أغمض عينيه لثوانٍ ثم فتحهما مرة أخرى وكأنه يبدي امتناناً لهذه اللمسة الحانية، بنصف ابتسامة قلت له:

- سوف ترتاح أعدك بهذا.

نزعت ببطء أنبوب التنفس من أنفه، مررت بأصابعي على رقبته وكأنها وجبة شهية كنت أميل برأسي لليسار ثم لليمين أتأملها، أتحسس مكان

النبض أشعر به الآن وقبل أن أضغط عليه تحجرت عيناه بنظرة لأعلى السقف وأصدر صوت شخير من فمه وبدأت الأجهزة تدوي بصوت رنين عالٍ أرجعت أنبوب التنفس لأنفه لكن وجدت أنه مجرد هواء لا يجدي نفعاً ولا يسكت طنيناً، قمت مفزوعاً من جانبه وسقط الكرسي للخلف، وإذا بالممرضين يتوافدون للغرفة يتفحصونه وبدؤوا بالإنعاش اليدوي لقلبه وأنا أنظر لهم ولقد عرفت أنه مات، صار يشبه وجه أمي لحظة تسليم روحها، خرجت مسرعاً وضرب كتف أحدهم بصدري، لقد كانت الممرضة العبوس لكنها لم تنظر لوجهي هذه المرة فلقد كانت فزعة تركض باتجاه الغرفة، سمعت بعدها صوت أحدهم يقول لقد مات.. ضربت بكفي على الجدار بقهر وقلت:

- ماذا لو جعلتني أفعلها لك، تنام أنت وأنام أنا.. عجوز أناني لا عجب أن يهجرك أبناؤك.

عدت لسيارتي، أدرت المحرك ووجدت المرآة منسدلة كوضعها حينما نزلت، نظرت لنفسي لقد عدتما يا عينيّ بالشحوب والحمرة أنفسهما اللذين يملئانكما، لقد وعدتكما أن تناما طويلاً لكن يؤسفني أن أقول لكما إنني لم أفعلها، لا يزال لديكما ليالي أرق قادمة.

رصيدك صفر
لا يوجد رصيد كاف لإتمام عملية النوم..

رصيدي من النوم صفر، ما عاد لدي رصيد ببنك النوم.. هذا ما قلته لسام بعد ما اتصل علي وقال: فعلتها؟ لقد مات الرجل ليلة البارحة!

فأخبرته بما حدث، لكنه ظل صامتاً وخائفاً أيضاً.

يجب أن أتخلص من سام هذا لقد صار يشكل خطراً حقيقياً بعد أن عرف بمقتل أمي ونواياي بكل مرة للحصول على رصيد نوم، ربما سيوجه لي أي تهمة مستقبلاً حتى لو مات رجل على كوكب آخر سيتهمني أنا بقتله، إنه أول شخص سيتم استجوابه إذا اعتقلت بتهمة ما، وبالطبع سيقول لهم كل شيء..

كيف لي أن أتخلص منه.. لا أستطيع قتل رجل مثله بكامل عافيته وغبائه أيضاً، إنه كمثل المصير المحتوم لي، لم يكن أمامي إلا أن أرشحه بدلاً عني للذهاب هو للبعثة التي وافق عليها مديري بالعمل ورفض سام مع خمسة متأهلين لهذه البعثة وراغبين بها، سوف أتنازل عن الحلم الذي كافحت مؤخراً للحصول عليه ومن أجله تحملت مرارة وحقارة مديري بالعمل والساعات الإضافية التي قضيتها وأنا أقوم بكل أعماله بدلاً عنه كرشوة أقدمها له ليقوم بالموافقة على هذا الابتعاث والذي يمتد لعام كامل.. أظن أن سنةً كافيةً لابتعاد سام عن طريقي ليصفو لي ما أريد.. وأتمكن من عمل أي شيء بإتقان وبدون شكوك أو توجيه لمرضى تنتهي صلاحية وجودهم قبل أن أتذوق شيئاً منهم، حتى أنه صار يكثر من ثرثرته المزعجة بهدف النصح الذي لا جدوى منه..

كتبت خطاباً لمديري بالعمل وأبلغته برغبتي أن يمنح هذه الفرصة لصديقي سام.. وتعذرت بكونها جاءت في وقت غير مناسب لظروفي بالوقت الراهن، وبدأت أسرد عليه ما الذي يميز سام عن البقية ليتم ترشيحه ليحل مكاني، لقد كنت أتوسل وليس أقنعه وحسب.

أرسلتها لمديري في الساعة الثالثة فجراً.. وغفوت على طاولة مكتبي بمنزلي.. صحوت على صوت صراخ قادم من منزل العجوز (بهية) التي يسكن معها ابن أخيها المدمن والذي يعود كل فجر وتبدأ دوامة الصراخ عالية والتي تنطفئ بعد ساعة بعد أن يسمعها جميع من يجاور منزلهم بالشارع بأكمله..

- تباً لك! شاب متسكع مدمن وحقير.. لقد سلبت مني ساعة نومي الوحيدة المتقطعة. أقولها وأنا أحاول العودة للنوم مجدداً.

الساعة السابعة والنصف صباحاً.

وصلت لمقر عملي، لم تكن الوجوه تبشر بالخير، الجميع كانوا حزينين أو يدعون هذا، ما عاد لدي القدرة على التفرقة ما بين الوجه الصادق والمتملق لكني أشتم دائماً رائحة الحزن والكذب.. لم أسأل أحدهم ما الأمر سوى أن العامل (منزول) الباكستاني الجنسية ثرثار وينقل الأخبار وتستطيع أن تشتري كل شيء منه حتى الأخبار التي لا تهمك.. قال لي: المدير مُتعب والجميع حزينون لهذا الخبر حيث تم نقله للمستشفى فجر هذا اليوم.

لم أهتم للأمر كثيراً لكني تذكرت الإيميل الذي أرسلته وصار ببريده! متى سيقرؤه ومتى سوف أتخلص من سام!

سألته: ما علته؟ ممَّ يشكو بالضبط؟

- جلطة بالرأس.

ضربت بكفي على الطاولة بقوة حتى سقط كأس الشاي وصرخت: والإيميل!

نظر لي سام وقال: الرجل به جلطة ادعُ له بالشفاء أو..

وسكت..

عرفت ماذا تعني هذه النظرة إنها رسالة مبطنة ورصيد نوم إضافي يرشدني له سام بمكر هذه المرة. سام يكره المدير وأنا أيضاً وحتى الجميع.. إنه شخص أناني جداً ومتحرش ومرتشٍ أظنه يستحق الموت.

وهنا التقت نظرتي مجدداً بسام وهز لي رأسه وكأنه يعرف بمَ أفكر الآن.. مددت عملة ورقية ملونة باهية المنظر أمام عين (منزول) وقلت له: زيارة المدير واجبة أريد أن أعرف مكانه ومن يزوره والأوقات التي يكون بها وحده، حتى نأتي أنا وسام لإلقاء التحية عليه من بعيد والاطمئنان عليه..

فصاح سام: لا! أنا أذهب وحدي! لا عليك اذهب أنت.

أخذ (منزول) العملة الورقية يقلبها ويشتمها وهو يردد: تمام، تمام. ويهز رأسه.

ما قبل النوم، كل جرائم الخيال حقيقية..

هل أستطيع شراء رصيد من النوم؟

هذا ما آمله هذه المرة.. ولكن ليس قبل أن ينتقل سام من هذه المدينة بأكملها، أرسلت إيميل آخر أتوسل لله أن يشفي مديرنا الفاضل وأن يعين من ينوب عنه بالمهام الجديدة وأن ينظر مرة أخرى لطلبي للأهمية القصوى..

وصلت لسريري أتوسل الوسائد للنوم، أحكي لهذا الليل عني، عن حكاية رجل قد شاب شعره وأرهقه التعب، أشتكي عن ذنب لم أقترفه عن جوع أشعر به الآن عن شوقي لأمي، عن صوت بكائها من خلف الباب وهي تحبسني لتعاقبني، ها أنا أقفل الباب علي مجدداً، لا أريد أن أقتل أحداً، أريد أن أبتلع المفتاح وأبتلع غصاتي وعبراتي وصرخاتي، أريد النوم فقط يا الله..

أيها الشيطان الذي تسكنني أتوسل لك أن تعتق يديّ المتلهفتين للقتل أن تخرج من بين أصابعي أن تتركني للريح لتأخذني أي موجة غبار تكنس الطرقات لعلي أعلق على غصن شجرة أو بمنتصف رصيف أو على أطراف شنطة أحدهم لأتنقل خفيفاً وحراً، أرجوك استقل من روحي الضعيفة هذه واختر شخصاً أقوى، شخصاً يليق بك، عذبه بالأرق اجلده بالاكتئاب، اجعله يشتهي كوب دم في الصباح ويمضغ قطعة لحم بشرية في المساء، أيها المارد اللعين اتركني أنام، أو أحضر لي من أقتله الآن.. بهدوء برحمة أخلصه ويخلصني، لا شيء يا الله نوم غير متقطع، نوم طويل بحلم أبيض، أصحو وأعود أنام، أتقلب وأختار غفوتي من جديد، أريد أن أشعر أني بشري فقط..

وهنا أصبحت أكسر أي شيء أمامي، كأس الماء الذي بجانبي، زجاجة العطر الوحيدة التي بغرفتي، كل شيء أستطيع حمله ورميه فعلت هذا به، بزقت على الجدران مزقت الستائر، ركلت الوسائد المتناثرة حولي، لقد انطفأ النور، وكأنه يعلن عن انتهاء الحفلة التي أقمتها مع نفسي من التذمر والعويل.

جلست على الكرسي المواجه لنافذة غرفتي المستطيلة مددت أرجلي أستند على حواف النافذة التي تظهر كقطعة من الجبس المزخرف، يتسلل منها ضوء خافت من عمود الإنارة بالشارع المقابل لمنزلنا، النور الذي يتذبذب منذ مدة وبحاجة لإصلاح، مددت يدي نحو الطاولة الصغيرة أتحسس علبة السجائر أين هي، كل شيء وقع بيدي إلا هي، أكوام من الأدوية المهدئة والأخرى المنومة وكلها بلا نتيجة ولا فائدة، أخذت سيجارة ودسستها بين شفاهي المرتعدة حاولت أن أشعلها مرة ومرتين وأخيراً لهب الولاعة يعمل أشعلت السيجارة ونفس طويل، نفثته باتجاه السقف، لا أجيد صنع دوائر من الدخان، أنا كنت أنفثها دفعة واحدة كدخان أبيض مهيب، سمعت صوت أحدهم يسعل بجانبي، أنزلت أقدامي عن حافة النافذة تلفت بالظلام حولي، لا أحد..

لعل هذا الصوت مجرد هلوسة وهذيان فلقد ابتلعت الكثير من المهدئات الليلة.. أخذت نفساً آخر من السيجارة ونفثة للأعلى بالطريقة الأولى نفسها وصوت سعال آخر من حنجرة ناعمة.. أطفات السيجارة وأنا ألتفت برأسي وأقول: من هنا؟ من هنا؟..

خرجت من الغرفة أمشي بأرجل حافية على الزجاج المتكسر أريد الوصول للباب لعل آتي بمصباح أو شمعة أشعلها بالغرفة ليتبدد هذا الظلام.. أثناء خروجي جُرحت قدمي من زجاج عطري وربما زجاج كأس الماء وربما زجاج أنوار الغرفة المعلقة بالسقف، لا أعرف أي منها تسبب بجرحي، كنت أسير ونقاط دم تتبعني، أتجاهلها، وأتجاهل نغزاً أشعر به في قدمي أخذت المصباح الذي كان بدرج المطبخ، حيث كنت أستخدمه كثيراً كلما خرجت في منتصف الليل للخارج لأجلس على عتبة الباب وأظل أشعل وأطفئ المصباح بوجه كلبة جارتنا العجوز بهية، عدت لغرفتي أنظر لبقع الدم التي كانت هنا.. هل قلت كانت؟ نعم كانت لكنها اختفت تماماً مع أنني واثق من وجودها وأنا ذاهب..

فقلت: لعلها نشفت أو غير واضحة مع نور المصباح، وربما لم أكن أنزف من الأساس، على أي حال سأتولى أمرها وأمر جرحي غدا.. لم أهتم كثيراً حتى للوخز الذي أشعر به في قدمي..

رسالة تضيء هاتفي الساعة السادسة صباحاً، رنينها الخافت كمطرقة على رأسي الثقيل، إنها من عامل الشاهي (منزول) يخبرني أن لديه ما طلبت من معلومات، هذا الأحمق ينام الساعة الثامنة مساء ويصحو الخامسة صباحاً وكأنه أخذ نعاس العالم أجمع ونوم العالمين كله، أنا لا أغبطه بل أحسده لعل نعمته تزول ويشعر بما أشعر..

للمرة الأولى أنهض للعمل بهمة واستعجال، غسلت وجهي ولبست ملابسي دون أن أفرش أسناني، لقد كنت أمشط شعري على استعجال وأنا أربط رباط حذائي اتصلت على الخادمة الآسيوية التي اعتدت أن تأتي

لمنزلي كل أسبوع مرة لتنظفه، أخبرتها أن تأتي اليوم وأن تنظف الأرض جيداً هذه المرة وتجمع الزجاج المتناثر لتفادي جرح آخر برجلي، لقد انتعلت حذائي وأنا متألم اليوم، الجرح يبدو غائراً قليلاً وربما هناك قطعة زجاج مغروسة بالداخل.

كأس الشاهي وصل لمكتبي قبل منزول نفسه، وجدته على الطاولة، وأيضاً هناك كوب القهوة الذي انقطع منذ فترة والذي كان يجلبه لي سام، الشاهي مدفوعٌ ثمنه بورقة ملونة منذ الأمس فلا عجب أن يستعجل منزول بإحضاره لكن القهوة ما حكايتها اليوم تحديداً؟

- شكراً لك يا جبران سعدت بهذا الخبر

- ما الخبر؟

أسأل سام الذي جاء بابتسامة عريضة على غير العادة.

- لقد أخبرني نائب المدير بموضوع الابتعاث ورغبتك بترشيحي للسفر بدلاً عنك.

- أها إذاً قرأ توسلاتي بالأمس.. ومتى ستسافر؟

- أحتاج لأسبوع حتى أرتب بعض الأوراق وأنجز بعض المهام.

- أسبوع؟! كثير يا رجل!

نعم كثير على رجل مثلي أقولها بنفسي كثير عليه أن ينتظر ليجمع أرصدة من النوم وهذا يقف عائقاً أمامه وخطراً يهدد حياته وربما يرميه خلف القضبان بقية عمره.

نظر لي سام بتعجب وكأنه للتو أدرك ما أنا ناوٍ عليه.

لكني استدركت نظراته هذه وقلت:

- أنت تعرف وضعي الصحي والنفسي فلقد فاتتني فرصة الابتعاث هذه وأتمنى ألا تفوتك فأنت الأجدر بها الآن.. استغلها وعجل بها..

ربتُّ على كتفه وأعدت له كوب القهوة الذي قدمه كعربون شكر وقلت: سأكتفي بشاهي منزول اليوم.

سترة النجاة تحت السرير..

غرفة رقم ٣٥٣

مستشفى البقاء غرفة ٣٥٣ الدور الثالث

الساعة الثالثة عصراً

حتى الساعة الثالثة والنصف

وقت متاح لزيارة المدير حيث لا يكون لديه أحد من أبنائه، فهذا وقت تبديل المهام بينهم وبينما تصل ابنته إليه تستغرق ٢٠ دقيقة أخرى لتصل لغرفته ويكون ابنه الأكبر قد خرج قبل هذا الوقت..

معلومات منزول دقيقة جدّاً ربما احتاج لحشد من الأفغان لمتابعة الغرفة ومواعيد الزيارة، لكن يبدو أن أحد عمال النظافة هناك سهل عليه المهمة، لا يهم.. أريد أن أهدأ أن يتوقف ما أشعر به، أريد رقبة تستحق الموت لأطحنها بين أصابعي، لم يكن أحد يحب المدير لكن الجميع يريدون العمل فهو شريك بالعمل، الجميع يبتسمون له ويحترمونه والجميع أنفسهم هم من يثقلون الليل والنهار بالدعوات أن يريهم الله بأسه به وأن يحل عليه اللعنة، ربما أنا اللعنة التي كانت في دعواتهم ويسعدني أن أكون كذلك..

أحببت أن أتحقق من معلومات منزول، وقفت بالدور الثالث بآخر الممر أرقب الغرفة رقم ٣٥٣ لم يدخل أحد إليها ولم يخرج أيضاً.. حتى جاءت تلك الفاتنة التي تحمل حقيبة من الجلد الخفيف كبيرة لونها بني أقصد الحقيبة وليس الفتاة، الفتاة كانت صافية جدّاً أكاد ألمح عروق يديها من هذه المسافة، شعرها ناعم خفيف منسدل على رقبتها، لها عنق نحيل وطويل، لا أعرف لماذا أنتبه للعنق أكثر من أي شيء آخر .. وقفت عند

باب الغرفة وفتحت حقيبتها الكبيرة تبحث عن شيء يبدو أنها قد نسيته.. تضجر وتزفر وتضرب ساقيها بالأرض واحدة تلو أخرى وتعود من حيث أتت، هذه الناضجة تبدو طفلة بتصرفاتها، الأنوثة التي تقتلني، عادت تركض بخطوات رشيقة وأنا أنظر لها من بعيد وأسأل: كيف لمثل غوريلا أن ينجب غزالاً!؟ فلقد كان والدها المدير أقصد، دميم الخلقة والخلق أيضاً.. لحقت بها فقط لأطيل النظر.. لقد كانت أسرع من أن يتبعها جرذ متطفل مثلي.

عرفت الآن أن مواعيد منزول دقيقة، لكن كيف فاته أن يحكي لي عن هذه الجميلة.. يبدو أن التفاصيل التي تهمني لا تهم منزول، طرأ لي أن أعود سريعاً للغرفة لأنهي تلك المهمة، فلو نزلت هذه الفاتنة لسيارتها فربما ستستغرق عشر دقائق أخرى لتعود لغرفة والدها، عدت أدراجي أستعجل خطواتي ودخلت على عجالة للغرفة، لم يكن بها أحد سواي أنا والمدير متمدد بمنتصفها على السرير.. اقتربت منه وهمست لقد اخترت كل شيء بعناية فائقة طوال السنوات التي عرفتك بها، اخترت لون ربطة عنقك وحذائك وقميصك وحتى الجميلات بالعمل، لكن فاتك أن تختار كيف ستموت وأين وعلى يد من تكون نهايتك، هل خيل لك أنني أنا ملك الموت الذي يقف على رأسك الآن ويتحدث إليك ويذكرك بكل حماقاتك وكل ما فعلت! بالطبع لا، لن أطيل أكثر فهذا النبض برقبتك مغرٍ جدّاً وينادي بلهفة ويطلب مني أن أحتضنه جيداً بأصابعي، لففت يديّ حول عنقه، وإذا صوت الباب يفتح وابنته تتحدث للممرضة عن والدها وصحته، لقد دخلتا معاً للغرفة، رفعت يدي بسرعة ونزلت على جبينه متظاهراً أنني أقبله، وقفت تنظر لي وأنا عيني على وجه والدها لقد

خشيت أن تحفظ ملامحي وربما خشيت أن أنظر لعينيها مباشرة وقلبي لا يحتمل نظرة عينَيْ أنثى ساحرة كتلك..

خرجت مسرعاً وابنته تشكرني على الزيارة، لكني لم أجب، فلقد كنت أود الخروج فقط..

في طريقي للمنزل وجدت رسالة من العاملة التي طلبت منها تنظيف المنزل بالصباح، تخبرني وهي غاضبة أنها لن تأتي مرة أخرى لأن مزاجي ثقيلٌ!

لم أذكر متى آخر مرة مزحت بها مع أحد أنا حتى النكات أقرؤها لا تضحكني، ثم إني نسيت كيف أبتسم ولو للمجاملة ماذا تريد هذه الآسيوية العجوز الخرقاء مني!

أرسلت لها وأنا أقود سيارتي رسالة أخرى أخبرتها، هل نظفتِ المنزل؟ أنا في طريقي الآن إليه لقد خرجت مبكراً من العمل اليوم أتمنى أن يكون جاهزاً وبدونك..

(عزيزي القارئ.. ما دمت تقرأ هذه الرواية فكن على يقين بأن قناة ضَاد هي من قامت بتوفير هذه النسخة! لذا تأكد من أنك تقرأها من قناتنا الرسمية على تطبيق تيليجرام. نعتذر على مقاطعتك، نتمنى لك قراءة ممتعة).

ردت برسالة أخرى غاضبة لتخبرني أنها ذهبت للمنزل لكن وجدته نظيفاً ولا أثر لأي شيء طلب منها تنظيفه، لا زجاج متكسر ولا دماء على الأرض ولا حتى أحد نام على السرير كل شيء كان مرتباً..

تركت الهاتف وسرحت قليلاً أفكر.. لعلي أتوهم أنني فعلت كل هذا بغرفة نومي بالأمس، لعلي بدأت بأولى مراحل الجنون والتخيلات ثم أنظر لقدمي وأجد اللاصق عليها يعني أنني لا أتوهم وأني بالفعل جُرحت وكان هناك دماء على الأرض.. نعم دماء لكنها اختفت سريعاً حتى قبل عودتي للغرفة مجدداً، لكن الفوضى أين اختفت؟

الزجاج المتناثر!

الأدوية وأعقاب السجائر!

القمامة التي فاحت رائحتها بالمنزل منذ أيام لم أتخلص منها!

ثم حتى لو أني شخص لا يستخدم سريره للنوم لكن أنا جل يومي مستلقٍ أحاول النوم!

ما الذي حدث!

عدت للمنزل استقبلتني كلبة (بهية) جارتنا العجوز تنبح بوجهي كالعادة، أقول في قلبي: ربما سأخنقك قريباً أظن أنك رصيد جيد للنوم غير أنك مقرفة ونجسة وأنا أكره الكلاب.. تخطيتها ودخلت منزلي، للمرة الأولى أجد باب غرفة أمي مفتوحاً..

مددت يدي لأغلقه دون أن أحاول أن ألقي نظرة على السرير، أشتم رائحة الموت دائماً هنا، رائحة قنينة أكسجين، ممزوجة برائحة فم جائع، لا أعرف كيف أصف تلك الرائحة النتنة التي تمنعني في كل مرة أن أدخل

غرفتها، في الواقع لا شيء يستدعي دخولي هنا، لا حنين ولا شوق ولا ندم، إنها مجرد فراغ يشغل حيزاً بالمنزل..

أنا لا أكذب

هل تظن أني أبدو غير طبيعي!

بالفعل أنا لست كذلك..

أغلقت غرفتها، وسرت نحو السلم أصعده فسمعت صوت خطوات بالدور الأعلى خفيفة تركض، رفعت رأسي وأبطأت من خطوتي، وضعت الأكياس التي أحملها مكانها على الدرجة الثالثة من السلم، إنها إنارة لأصلح ما سببته ليلة أمس بغرفتي..

صعدت بهدوء وصلت للأعلى التفت لليمين لتلك النافذة المفتوحة أمام الأريكة الصفراء والستائر تتحرك بهدوء مع هواء اليوم العليل، التفت للجهة اليسرى حيث غرفتي، أنظر للأرض ما بين غرفتي والمطبخ العلوي الصغير حيث آثار الدم بليلة البارحة، لكن الأرضية نظيفة تماماً، ذكرتني رائحة البيت بأيام خلت، أيام ما كانت أمي من تنظف البيت وتهتم بكل التفاصيل الصغيرة، تقطف أزهار القرنفل من الحديقة وتضعها فوق تلك الطاولة الصغيرة بداخل كأس زجاجي صغير مملوء بالماء، سرت نحو غرفتي وإذا بها بالفعل مرتبة، السرير كأن لم يلمسه أحد منذ مدة، الشراشف البيضاء مشدودة بإحكام، الأدوية مرصوصة فوق الطاولة القريبة للسرير، وكأس ماء مملوء للتو، النافذة التي تطل على الشارع أشعر أنها بدت أكثر اتساعاً اليوم، حتى نور الشمس في وسط المكان بخطوط

متوازية، وكأنها لوحة لا تود أن تزول، عرفت أن الأغصان الممتدة من الشجرة العجوز إلى نافذة غرفتي قد قُلمت جميعها ليدخل الهواء وربما لأستطيع مراقبة الشارع بصورة أوضح هذه المرة..

هناك من أعاد ترتيب كل هذه الفوضى، وضعت مفتاح سيارتي على الطاولة وجلست على طرف السرير لأخلع حذائي فتذكرت كيس الأنوار الذي تركته على الدرج، نزلت لأخذه كي أنتهي من تركيب الأنوار قبل المساء فلم يتبقَّ عندي شموع ثم إن بطارية المصباح أصبحت ضعيفة، لكن لم أجد الكيس مكانه حيث تركته!

تلفت حول نفسي وأنا على السلم أحاول أن أسترجع ذاكرتي القصيرة، أين وضعته! رجعت لغرفتي وأنا أتحدث مع نفسي وأقول أين وضعته، فإذا به أمامي وبجانب مفتاح سيارتي على الطاولة..

بدأت أشك بقواي العقلية الهزلية وأقول لنفسي تبّاً لكل هذه المهدئات ماذا فعلت بي؟!..

دخلت لأغتسل لأدفع بهذا الجسد البالي تحت صنبور الماء لأغسل رأسي ثلاثاً من الأوهام مرة ومن الأرق ثانية ومن الهلوسات ثالثة، مسحت على رأسي ومررت بأكفي على صدري الذي ينتصفه خط من الشعر الخفيف الذي شاب معظمه وتحول للبياض، لساحة من العشب الأبيض، رفعت رأسي وجعلت الماء يضرب وجهي مباشرة أحتاج أن أصحو وأتذكر من فعل هذا كله، وهل أنا فعلت شيئاً في ليلة الأمس، أسوأ شيء أنك تنام وأنت مفتوح العينين والعقل..

لففت المنشفة على خصري وتركت شعري منسدلاً على وجهي يتقاطر بمائه، فتحت باب دورة المياه وإذا بي ألمح شخصاً ركض مسرعاً باتجاه السلم.. ركضت مباشرة خلفه لعلي أمسك بهذا الظل الأبيض الذي خطف من أمامي، لكنه تلاشى سريعاً وكأنه ذاب بداخل أحد الجدران دون أثر..

أؤمن بوجود الأنا..
أبالغ بحب نفسي، أشجعني على أفكاري
وأقدم لها التبريكات قبل أن أنفذها..
أنا رجل أحب نفسي وأتمنى لها نوماً طويلاً
هانئاً..

لقد سافر سام منذ شهرين لم يودعني هذا الجرذ حتى وكأنه نسي أني صاحب الفضل بابتعاثه هذا، في الواقع كلانا قدم فضلاً للآخر.. لقد سافر وترك لي مساحة كبيرة حرة، أستطيع أن أجمع رصيداً إضافيّاً دون شكوك من أحد أو حتى تكهنات، أستطيع القول إن الخطر زال الآن، حتى عامل القهوة منزول نسي تماماً مواعيد الحضور التي طلبتها منه لزيارة المدير لأني شكرته في اليوم التالي على ما فعل، وسألني: هل استطعت الزيارة دون مضايقة أحد ذويه كما كنت ترغب؟ قلت له بامتنان بالغ: نعم فعلت شكراً للمساعدة...

مريض الجلطة دائماً تزدحم عنده الوجوه المصدومة والباكية والحزينة في الأيام الأولى، ثم تتلاشى ويتبقى عنده الأبناء ملازمين له، ثم يتلاشى الأبناء ويبقى تحت رعاية ملائكة الرحمة وهم طاقم التمريض، عرفت أن وضعه الصحي يسوء فلقد توالت عليه جلطات أخرى أصابت اللسان والقدم اليسرى، الجميع ينتظرون موته، والورثة ينتظرون ورثهم وأنا أنتظر أن أنام..

الرصيد الذي سيجلبه لي ليس بالهين، فهي ثلاثة أشهر وربما ستة أشهر من النوم العميق وهذا ما أريده..

ثم إن هذا اللعين الذي بداخلي لم يكف عن دفعي وتحريضي تجاه خنقه وفي كل مرة يجلدني بالأرق وأنا أعده أني سأفعلها في اليوم التالي، أظن أن اليوم التالي هو الآن..

أمام غرفة ٣٥٣ الممر خال تماماً إلا من عامل نظافة يشبه منزول ذاك الوجه الذي لم يجلب لي سوى النحس، تجاهلت حكاية النحس

وانتظرت حتى يبتعد قليلاً، تسللت بهدوء لغرفته، الخالية من الورود إلا باقة حزينة قد ماتت وبقي الكرت معلقاً يحمل اسم المُهدي، يخيل لي أني لمحته من بعيد مكتوباً بالتوقيع: سام، يا للجرذ الصغير، كيف يدلني لقتله وهو يهدي له الورد ويبتعد!

اقتربت من مديري سابقاً، والمريض العاجز حالياً، كان يغط بنوم عميق وربما بغيبوبة طويلة، لم أسلم عليه مثلما فعلت آخر مرة فلقد وفرت هذا السلام حتى أزوره بقبره قريباً..

لقد كانت رقبته المجعدة وجلده القاسي شهيين، يبدو جاهزاً تماماً، لا أحتاج لأسترجع كل أفعاله الدنيئة معي ولا أستذكر كل أقواله وحقارته مع الجميع، ولا شهوته الحيوانية التي تجعله يتحرش بالموظفات وكأنهن جوارٍ ومِلكُ يمين، لقد كانت لدي دوافع أكبر للقتل، دوافع لا تحتاج لأي تبرير لأقوم بخنقه، تلك الرغبة كافية لفعل هذا..

لففت كلتا يدي على رقبته، حتى أنه فتح عينيه وصار ينظر لعيني مباشرة، أكره نظرات الوداع هذه لكن هو من أراد توديعي، ضغطت بكلتا يدي دون رجفة دون خوف دون حتى أن أزفر، كلما ضغطت تصلبت عيناه أكثر واحمر وجهه وانتفخ أنفه وتعرق جبينه...

لم أنتبه لشيء ولا حتى لهذه الملامح المخيفة لم أشعر إلا وقد أزهقت روحه بين يدي، لا أعرف من أين لي تلك القوة وأنا بجسد هزيل وقوام نحيل وقدرة ضعيفة!

لقد كانت قواي تتضخم وكأن يديّ تصبحان حديدة من فولاذ صلب يصعب ثنيه وإبعاده..

لقد فاضت روحه وشخر بين يدي، لم أشعر بمقاومته كثيراً ربما كان مستسلماً لفكرة الموت.. لم أسمع صوت طنين أجهزة مثل ذاك العجوز لقد كان خروجي سلساً جداً ومريحاً، وقبل خروجي مزقت كرت الإهداء الذي كتبه سام، ووضعته بداخل جيبي، أخذته معي كي لا يبقى له معروف وأنفرد أنا بالمعروف كله..

لقد أرحت البشرية منه أقولها وأنا أتصبب عرقاً لكني سعيد من الداخل كمثل طفل فاز أخيراً بالسباق بعد أن تعب من الركض ولا أحد معه يركض، وكان انتصاره الوحيد أن يصل.

فتح المصعد الكهربائي بوجهي وإذا تلك الجميلة ابنة المدير المرحوم الآن، لقد بدا وجهها متعباً أكثر من السابق وابتسامتها ذابلة حينما تبسمت بوجهي مجاملة، شعرها الناعم مربوط للخلف وشنطتها الجلدية الكبيرة هي ذاتها تحملها ويبدو أنها فارغة هذه المرة، لقد ذكرتني بشنطة العجوز التي طرقت باب بيتنا سابقاً، حقيبة فارغة لكنها تحمل شيئاً أكبر، كنت أود أن أخبرها أنها سترتاح طويلاً الآن من هذه الزيارات، وأني آسف جدّاً على قتل والدها، لكن أنا بحاجة للنوم والعالم بحاجة للراحة من أمثاله.. قبل أن يغلق المصعد سمعت صوت الصرخات، ربما عرفت بوفاة والدها فكانت غرفته هي الأقرب للمصعد، لم يكن الصراخ بحرقة، فلقد شعرت أنه الحلقة الأخيرة من مسلسل طويل كنت تنتظر

أن ينتهي بموت البطل ليرتاح كل طاقم التمثيل من عملهم المجهد، وتتحقق النهاية العادلة للجميع.

تبسمت هنا، فكم يعجبني هذا العويل البارد ويروق لي.

لا توجد حياة بدون ملل

ولا حديث مطول إلا ويشوبه الملل

لا يوجد قصة بدون لحظات تفتر بها

الأحداث وتشعر بالملل

أيّاً ما كنت تشعر به الآن لا يعني لي شيئاً

فأنا أغط بنوم عميق..

لقد تحررت من الخوف، لأني أؤمن أن الخوف هو أساس العبودية في الأزمان السابقة، وبسببه نشأت المذاهب والمعابد والزوايا وغيرها.. الخوف هو أساس أخلاق العبيد هذا ما يحسبه المفكر الفيلسوف نيتشه، فهو يرى أن الخوف هو الخطر الأكبر الذي يعطل العقل ويشل الإرادة..

لا خوف إلا من الخوف نفسه..

لقد تعايشت وكأن شيئاً لم يحدث، حضرت العزاء برأس متطأطئ ووجه حزين صافحت أبناءه ودعوت له بالرحمة ولهم بالصبر والسلوان، صافحتهم باليد نفسها التي خنقت بها والدهم..

لقد حظيت برصيد نوم جيد، استطعت أن أهنأ بنوم هادئ، حتى أني أقمت احتفالاً صغيراً في الليلة الأولى يليق بمناسبة مثل هذه..

فحينما يزورني النعاس لا بد أن أحتفي به..

لقد جهزت كأساً زجاجيّاً طويلاً وملأته بالثلج لمنتصفه ثم ملأته بعصير العنب الأسود الذي أحبه، أشعلت شمعة أوشكت على الانتهاء أحب احتراق الشمع، أحب أن أراقب نهاية الأشياء نهاية الشمع، نهاية اشتعال عود الثقاب وتلاشيه رماداً، أحب جبروت النيران حينما تلتهم الورق، لقد استهلكت في احتفالي هذا إحدى عشرة سيجارة، لم أسمع سعال أحد خلالها.. كنت أدخن باتجاه السقف كما فعلت آخر مرة..

لقد ملأت رئتي دخاناً وملات معدتي عصيراً وملأت عينيّ ترقباً لذوبان وتلاشي الشمع. حتى شعرت أني أطفو الآن فوق سطح مائي راكد لا شيء حولي سوى طقطقة ضفادع.. أنا أغفو الآن..

حلم.. غير متاح

امرأة جميلة

بعنق طويل

سمراء صافية

تكاد تشتم من أي طين خُلقت، أصابعها نحيلة طويلة

لها أكف ناعمة أشعر بهذا حينما أجمع أكفها الصغيرة بين أكفي دون مساس

شعرها غجري مجعد لها خصلة حمراء بمقدمة رأسها

ما بين حاجبيها ومنابت شعر رأسها جبين ربما يراه البعض عالياً بعض الشيء

لكني أراه يتسع كل قُبلاتي المجنونة التي تركض مني دون خجل

حواجبها صغيرة متباعدة

عيناها كلوزتين بعدسة سوداء براقة

وجنتاها ممتلئتان كلما تبسمت اشتهيت أن أقطف توتاً منهما

لها ثغر بشفاه ممتلئة تعلمني كيف أكون سنة أولى لأتعلم مخارج الحروف منها بتأمل لا منتهٍ

نحرها ساحة ملساء سأقضي بها معظم أوقاتي

أحرث ما بين النهدين لأزرع غصن ريحان

وأدفن سري بكتفها همساً

هذه السمراء الفاتنة تنظر لي من بعيد وكلما حاولت أن أقترب منها تلاشت

لقد اكتفيت بالنظر وتلوت آيات لعل الله يسقطها بحضني ولا تجد لها مفرّاً..

للمرة الأولى أستيقظ وأنا أحمل قلبي.. أشعر أنه سقط عند أقدام حسناء تركتها بالمنام معلقة بزمن لا يشبه زمننا هذا.. وهل يعقل أن زماننا ينجب مثل تلك السمراء؟!

لقد كنت منتشياً طول يومي، طائر يرفرف على كتفي يصيح بالحياة، للمرة الأولى أشتم رائحة الصباح رائحة القهوة والشجر والنسيم وحتى الرصيف.. أشتم رائحة رسائل المحبين ونعاس الأحبة بعد ليلة سهر طويلة، أتحسس كل شيء ناعماً وحريريّاً وكأننا بمملكة تحكمنا دودة قز..

لقد اكتشفت أني أحفظ الأغاني فصرت أرددها بصوتي الأجش لكني أسمعها وكأنها حنجرة ذهبية تعزف وهي تغني..

هل يحق لي أن أختار حلم الليلة؟

لاخترت هذه السمراء طوال حياتي..

قهوة المصباح التي تقع على الشارع المؤدي لحينا، اعتدت أن أجلس على كرسي بالزاوية الخارجية للمقهى، طاولة دائرية صغيرة تكاد تتسع لكوب قهوة ومرفق يدي، كرسي مشطب وبه الكثير من الخدوش حتى أنه غير ثابت فإحدى أرجله أقصر من الأخرى، لكن هو الذي يحتل الزاوية التي أرغب، مكانه يكشف لك كل شيء وكأنه عنق مثلث، كل أضلاعه ممتدة أمامك، قهوة اليوم وهي قهوة خاصة مقطرة يعدها المصباح بنفسه.. كان الشارع خالياً وهادئاً، أرتشف قهوتي وأتأمل كل شيء قابل للتأمل وحتى للنظر، بالجانب الآخر من زاوية المقهى والتي تبعد عن كرسيي الأعرج ثلاثة أمتار، رجل عجوز يقرأ جريدة، لقد قرأت كل العناوين والأخبار المواجهة لي وأنتظره أن يقلب الصفحة لأكمل القراءة، لكنه لم يفعل، كانت الجريدة تهتز في يديه غير الثابتتين، وضع الجريدة على الطاولة أخيراً، رفع نظارته ذات الإطار الأسود والعدسات الضخمة الثقيلة عن عينيه وأدخل أصبعه المرتجف ليمسح دمعة تكاد أن تفضحه، كان له سر يواريه وربما له همٌّ يخفيه، وربما موت ينتظره وهو خائف منه، كنت أريدها أن تكون الثالثة لأعينه على هذا دون خوف، اقتربت منه، سحبت الكرسي المواجه له، وطلبت له كأس شاهي حار، لا أريده أن يشرب القهوة ويكون متيقظاً..

سألته إذا ما كان يريد مساعدة أو حتى يود الحديث مع أحد ربما هناك ما يزعجه.. أنا الذي أكره الفضفضة والمفضفضين، أكره أن أكون وعاء لكل تراكماتهم النفسية، لأني حتماً سوف أتعفن سريعاً وتفوح رائحة كآبتي..

نظر لي العجوز وقال:

- هل لديك متسع من الوقت لعجوز مثلي؟!

تبسمت وقلت:

- بالطبع كل الوقت لك.

انطلق العجوز بالكلام دون أن ألح أكثر لمعرفة ما يشكو منه، ربما بالفعل كان بحاجة غريب يتحدث معه:

- لقد توفيت زوجتي منذ ستة أشهر، هجرت الحي والمنطقة بأكملها، بكل شيء يذكرني بها من أماكن تسوقها وتبضعها، من الحافلة التي تركبها، من محطة الانتظار التي تجلس بها، من حديقة الحي التي تقضي بها معظم وقتها في غيابي الطويل تطعم القطط التي تخلى عنها أصحابها فجأة وربما هي من أضاعت الطريق إليهم والحمام الذي يجتمع كلما جاءت للمكان، لقد بكت الطيور لفراقها وجاعت القطط حزناً، لقد بهتت السماء هناك والشمس لم تشرق منذ رحيلها، أشعر بوحدة تكاد تقتلني، أنا أنتظر موتي، لقد انتقلت إلى هُنا بكامل حزني الهش وكامل أناقة حبي الذي يزهو بحبيبتي الراحلة، رحلت ومعي كل شيء إلا هي.. أشعر أني متعب وبداخلي فوهة تلتقط كل شيء يسقط بها..

تكبر.. إنها تنمو على حزني ودمعي.

ربتُّ على كتفه ووعدته أن أقوم بزيارته عند المساء لأحضر له عشاء بمناسبة هذا التعارف، ولأكون صديقه الجديد الذي سيزوره دائماً ويجلس معه ويعوضه عن أقاربه وجيرانه الذين تركهم هناك، لقد أخبرني

أن لا أحد من أقاربه يعرف مكان سكنه الجديد، فلقد أخبر الجميع أنه يود أن يبتعد لعله يُشفى من حزنه، أو يموت.

يموت هذه أنا من يقولها..

عدت لمنزلي أجهز لدعوة العشاء التي دعوت نفسي عليها وأنا من يقيمها، ربما نحتاج لاحتفال صغير عندما أعود لهذا أنا أتحقق من وجود عصير العنب والثلج والشمعة وسجائر كافية، ربما ستأتي السمراء اليوم كحلم شهي..

لا يزال الوقت مبكراً للمساء لكني أستعجل قدومه، لدي رصيد كافٍ من النوم، لكن النشوة تعتريني لأفعلها بكل مرة، هناك من يحضرني لهذا، من يجعل الرقاب شهية..

أتكئ على نافذة غرفتي أنفث دخان سيجارتي كعادتي وإذا بصوت الشاب المدمن الذي يسكن مع عمته العجوز بهية يعلو مجدداً، لقد اعتدت سماعه فجراً بعد ما توبخه بكل مرة لعودته متأخراً ومترنحاً تفوح منه رائحة نتنة، أكاد أشتمها وأنا على هذه المسافة، في كل مرة تظل كلبتهما تنبح وفي كل مرة يعلو شجارهما، بالمناسبة كلبتهما هذه تنبح أيضاً عند رؤيتي رغم أنني لا أتشاجر مع عمته العجوز.

لقد كانت الشجرة تحجب الرؤية، الآن أستطيع تتبع خطوات الشاب من غرفته إلى الصالة المجاورة ثم لغرفة عمته العجوز اتتبع خيال رأسه من النوافذ، لقد كان طويلاً ونحيلاً أقل وزناً مني.. هذه الرؤية تجعلني أستمتع بوقت سيجارتي وكأنه مسلسل أعرف نهايته..

يرن منبه الساعة..

أطفئ سيجارتي وأتأنق أمام المرآة وأنا أبتلع ريقي وكأني مدعو لحفلة عشاء دسمة.. هذا العجوز يجعلني أنام لأشهر إضافية..

لقد اشتريت لضحيتي الرجل العجوز والذي اسمه كنعان، الفطائر المحلاة بالعسل والسكر، لا بد أنه يعاني من السكر ولقد أمضى حياته وهو بحمية قاسية يحق له الآن أن يستلذ بها قبل أن ينام طويلاً برحلة أبدية.

أشعر أحياناً أني أفرط بتدليل الضحية ولكن هذا جانب من متعني الشخصية وأني كلما دللتها نعمت بنوم هادئ وازددت نشوة..

وصلت إلى شقته حيث كان يسكن في عمارة من ثلاثة طوابق لقد أخذ الغرفة التي تقع بسطح البناية، لا أدري من أين يأتي بكل هذه اللياقة ليصعد كل هذه الدرجات التي استهلكت آخر نفس برئتي.

طرقت الباب لم يجب أحد وضعت يدي لأفتحه فوجدته مفتوحاً بالفعل، أدخلت رأسي قبل قدمي، ناديت بصوت عالٍ:

- عم كنعان! يا عم كنعان!

- لا ترفع صوتك أنا هنا وأسمعك.

قلت في نفسي: كيف لعجوز مثلك وبهذا العمر لم يهترئ سمعه بعد؟!

وجدته جالساً على كرسي خشبي هزاز، يضع نظارته الثقيلة على طرف أنفه، وبيده كتاب بأوراق صفراء قديم على ما يبدو، لم يكن بالمكان الكثير من قطع الأثاث لكنه كان حميميّاً ودافئاً، وكأنه مجهز لغرضي تماماً.

أشار لي بأن أجلس على الكرسي المقابل له والذي كان أمامه طاولة مربعة الشكل صغيرة بوسطها حوض لنبتة البوتس خضراء متفتحة الأوراق ومدللة، يبدو أن العم كنعان يهتم بها كثيراً فكيف إذاً كان اهتمامه بزوجته العجوز؟!

سحبت الكرسي ووضعت الفطائر المحلاة على الطاولة، مددت يدي أفتحها وأنا أقول له:

- اليوم سوف نحتفل يا عم كنعان جئت لك بالفطائر المحلاة ستعجبك كثيراً..

تبسم وقال:

- أنا كل يوم أتذوق الحلا الفاخر لدرجة أن قلبي يزداد نبضه وأطرافي ترتعد وأشعر بهبوط حتى تذرف دمعتي. أنا هذه حلوتي وهذه هي السكر الحقيقي.

ويرفع صورة صغيرة لزوجته كانت بين أوراق الكتاب الأصفر الذي بيده..

أشعر بغثيان مما يقول فهذا الحب الأبدي غير حقيقي، تبسمت أنا أيضاً وقلت:

- لا بأس أن تتذوق حلاً عن طريق فمك واللسان، فالعيون لا تدرك اللذة مثلما يفعل اللسان يا كنعان.

ناولته قطعة من الفطائر المحلاة، أكلها بلذة عارمة، ثم تناول الثانية وأنا أنظر له كيف يلتهم وجبته الأخيرة، وفتاتها يتساقط على ذقنه السمينة وشاربه العريض، ليتعلق من مربى الفطائر على جوانب فمه وهو يحاول لعقها بلسانه مستمتعاً بهذا..

صب ماء من دورق زجاجي بجانبه، لم يملأ الكأس وكأنه يعرف حاجته بالمليمتر، رفع رأسه وهو يشرب الماء وأنا أنظر لرقبته، لعنقه الطري المتجعد العريض، والماء يمر من جوانب فمه ليمر على رقبته وكأنه يغسلها ليجهزها لي نظيفة ومرتوية أيضاً.

شيء ما يدفعني يبث بي طاقة مضافة وكأن شخصاً حديديّاً يسكنني، شخصاً نزع قلبه مع نعليه عند الباب ودخل بكامل جرمه ووقاحته، قفزت من مكاني وثبت فوقه ثبت كتفيه بركبتي ورغم اهتزاز الكرسي إلا أنني استطعت تثبيته، جلست على صدره ومسكت رقبته العريضة بين يدي غرزت أصابعي بها، تراشق الماء من فمه فلم يبتلع بعد آخر شربة ماء، لقد رشقه بوجهي ومعه شيء من بقايا الحلا، قذر لعين! لقد شعرت بالقرف لهذا، لكن كنت مثبتاً يدي على رقبته وأرجله تتحرك وتضرب على حافة الكرسي والأرض بعد أن انزلق جسده قليلاً للأسفل، لقد نظر لعيني مباشرة وسقطت دمعة من عينيه ثم لحقت عيناه روحه التي صعدت للسماء..

آه يا للذة!

أوه أوه أقولها وأنفثها وأنا أمسح الماء المتراشق من وجهي..

ضحكت بصدر يلهث وأنا أرفع رأسي للسماء.

صرخت بصوت عالٍ حتى خشيت أن أحداً سمع صوتي.. صرخة انتصار وتحقيق نشوة.

أغمضت عيني كنعان ومسحت بقايا المربى العالقة بشاربه والتي لم يسعفه لسانه لابتلاعها، رتبت شاربه بأصابعي ورفعت الكتاب من بين يديه وإذا هو ليس بكتاب، هو دفتر مهترئ مذكرات كتبت بخط اليد وبداخله تلك الصورة التي قال إنها لزوجته.

أخذت الدفتر وأحضرت له غطاء خفيفاً من غرفة نومه، وضعت الغطاء فوقه إلى حد رقبته كما فعلت مع أمي، أعرف أن الموت بارد جدّاً لهذا يحتاج للدفء.

أخذت الباقي من الفطائر المحلاة لأكمل بها سهرتي عند العودة والاحتفال بالمنزل، أغلقت الضوء وأيضاً الباب لففت وجهي بغطاء أسود هكذا يفعلون في العادة عندما يرتكبون جريمة ويخافون أن تكشف..

نزلت كل السلالم الطويلة وأنا بخفة عالية وكأن شخصاً يحملني على صدره فرحاً بإنجازي هذا..

لا تكتب مذكراتك

ربّما يقرؤها من قتلك يوماً..

زينة زوجة كنعان..

ورقة في المنتصف تقول فيها..:

لقد أمضيت ليلتي هذه أنتظرك، جهزت لك كوب قهوة في الظهيرة ثم استبدلت به كوب عصير عند المغيب والآن أجهز لك كأساً من الأعشاب الدافئة التي اعتدت أن تشربها قبل النوم، لقد تأخر الوقت ولم تأتِ لقد مضى عام على غيابك، اسأل الأكواب عني والأماكن وشجرة التوت بحديقة منزلنا، اسأل الوسادة التي همست لها مراراً أني أحبك وأقسمت عليها ألا تخبرك بهذا..

أشعر بالنعاس الآن..

سأنام يا حبيبي وسأنتظرك لعل بريد الصباح يأتي بك، أو إذاعة الراديو تخبرني شيئاً عنك أو حتى الطير الذي يشاركني فتات خبز الظهيرة يشي بمكانك..

الحرب أخذت كل شيء..

تصبح على خير..

أغلقت الدفتر ورميته بعيداً وقلت: يستحق إذاً الموت!!.. أقمت احتفالي الصغير ونعم جسدي بنوم عميق..

الليلة الثالثة الهانئة.. لم أسمع شيئاً ولم أزر الحي مجدداً بعد تلك الليلة.. فقررت أن أذهب له بعد الانتهاء من العمل.. لقد مررت بسيارتي من

داخل الحي كان كل شيء طبيعيّاً، لم أشعر بارتباك مطلقاً، ركنت سيارتي ونزلت عند قهوة المصباح لقد كان رجلٌ يجلس بزاويتي المفضلة للأسف، فجلست مكان كنعان طلبت قهوة سوداء بدون إضافات، كنت أنتظر الإضافات من صبي المصباح نفسه، تمنيت لو أن منزول يسكن في هذا الحي لكانت ورقة واحدة ستجلب لي كل ما أريد من أخبار، لا أستطيع السؤال عنه خشيت أن يوجه لي الاتهام، أحضر لي الصبي القهوة وقال لي: منذ أربعة أيام لم تأتِ إلى هنا لعله خير؟

نظرت له ثم مررت أصبعي على حافة الفنجان وكأني أمسح عليه بهدوء تام وقلت:

- هل تتفقد كل زبائنك في غيابهم؟

قال:

- بالطبع.

- إذاً أخبرني من تغيب عن القهوة خلافي هذا الشهر؟

كنت أريد أن يذكر اسم كنعان لكنه عدد لي كل القائمة إلا إياه فقلت متحايلاً:

- هل سأل عني الرجل العجوز الذي قابلته هنا منذ فترة؟ لقد كان وضعه محزناً وحاولت تخفيف حزنه.

- لا إنه لم يعد يأتي إلى هنا، رغم أنه كان يأتي لأيام متتالية، ربما وجد مكاناً آخر يقدم قهوة أفضل من المصباح.

يقولها لي وهو يخفت صوته ويتبسم بمزاح ثقيل باهت.

شربت قهوتي على عجالة كادت أن تكون رشفتين وتركت الثالثة ونهضت..

فبدلاً من أن أتوجه للعمل، توجهت للمنزل الذي يسكن فيه كنعان، لا شيء جديد، بخطوات سريعة واحتراس ركضت للسطح لغرفة كنعان وقبل أن أفتح الباب شممت الرائحة تفوح للخارج، إنها رائحة جثته، لقد تعفن دون أن يفتقده أحد..

خرجت مسرعاً متلثماً هذه المرة ليس لكي لا يعرفني أحد وإنما مقتولاً من تلك الرائحة. وصلت لسيارتي ولم أستطع تحمل الرائحة العالقة برأسي وثيابي.. قدمت مسرعاً لمنزلي، فتحت النوافذ لعلها تتبخر مني الرائحة، وصلت لمنزلي سريعاً ورحت أركض لغرفتي وبمنتصفها جثوت على ركبتي وصرخت عالياً.

لا أعرف سبب صراخي هذا لكن أعرف جيداً أنني لم أود قتله، كنت أدور بغرفتي وأضرب على صدري مرة وعلى رأسي مرة أخرى وأزفر بقوة، وأسأل نفسي: لمَ فعلتها؟ لمَ أنا أبكي الآن؟؟..

أنظر لنفسي في المرآة وأقول: لمَ؟ ما الذي دفعك لقتل رجل مسن هارب من الحياة للوحدة، من الحزن لحزن أكبر، من ذاكرة يخاف أن يتعفن بها لواقع تعفن به!

لمَ اختار الشيطان اللعين أن يقتل كنعان، ليكون مصيره بين يدي؟؟ مصير باهت ونهاية مقرفة..

ما الذي فعله كنعان لتكون نهايته على يد قاتل غبي مثلي، يقتل لينام، ليرقص ليحتفل ليغني فقط، ليسرق كل ذخيرة كنعان مذكرة صفراء مهترئة ويهرب؟!

وأنا أنظر للمرآة بكل هذا اللوم والعويل اللذين أقولها لنفسي وأرى أحدهم يجلس على طرف السرير على سريري أنا ألتفت ولا أجد أحداً، أعاود النظر للمرآة ولا أحد.. وكلما نظرت للمرآة رأيت أحدهم على سريري ولكن يخذلني الواقع عندما ألتفت وبسرعة، ضربت بيدي على الزجاج وأنا أردد تبّاً لهلوسة تسكن رأسي البائس!.. ضربت ضربة قوية كفيلة بتهشيم زجاج المرآة..

وإذا بدمي البارد يسيل ما بين أصابعي، لم أكترث لقد فقدت الشعور بكل شيء مسحت الدم بقميصي الذي ألبسه وجلست على الكرسي البائس التقط أنفاسي بهدوء مرتجف، رفعت رأسي للسقف محاولاً التقاط أنفاسي من الأعلى لعله يهدأ صدري، وإذا بي ألمح ظلًّا آخر غير ظلي منعكساً على السقف.. لم أجرب أن ألتفت لكني جلست أتأمل الظل الآخر، لمن يكون، لقد كان ظلًّا بخصر منحوت شهي وشعر يبدو أنه أجعد طويل وهذا ما جعلني ألتفت على السرير بهدوء هذه المرة وإذا بأنثى سمراء تجلس على حافة السرير ترتدي ثوبًا حريريّاً لونه يميل للزرقة أشبه بلون سماء صافية، هذه السمراء رأيتها سابقاً ولكن لا أتذكر أين.. حسبتها إحدى هلوساتي.

تبسمت ابتسامة ساخرة وقلت:

- لقد تطور وضعي كثيراً تبّاً للدكتور الأحمق! فعلاجه جاء لي بامرأة بمنتصف غرفتي.

لم ألتفت مرة أخرى.

أخذت سيجارة من جانبي وأشعلتها.

حبست دخانها بصدري ونفثته باتجاه هذه السمراء لعل خيالي يسترد صحوته.

وإذا بها تسعل!

ذاك السعال الذي أسمعه كل مرة في غرفتي وبعد كل سيجارة أدخنها!

نهضت من مكاني سريعاً، لكنها خرجت مسرعة من الغرفة، لحقتها ولم أجدها وكأنها ذابت بداخل أحد الجدران..

السر الذي تخفيه طويلًا لا تكتبه..

الخوف ليس أن يقرأ كما كتب، ولكن أن يقرأ عكس ما كُتب..

تقول زينة زوجة كنعان في مذكراتها..

لقد أجهضت ابنك بالأمس، وأخبرتك أنه سقط وحده..

أنا أحبك دون أن أنجب منك

أخاف يا عزيزي أن أنجب ابناً يشبهك لتتعلق به أنثى حمقاء مثلي وتظل تبكي طويلاً..

أحبك ولكن لن أدع العالم يتكاثر بأمثالك

دمك لن يبرح مكانه سيظل بعروقك، أنت زوج تصلح لكل شيء إلا للحب..

وفي صفحة أخرى كتبت..

فكرت بخيانتك كثيراً لكن لم أجد مثل رائحتك..

تلك الرائحة التي تجعلني أتعلق بك، كفراشة ضوء علقت على مصباح مضاء.. واحترقت.

لا أعرف لمَ في كل مرة أعود وأقرأ من مذكرات زينة، ربما لأنها في كل مرة تعطيني سبباً ومبرراً لقتل كنعان..

اليوم السابع عشر من شهر أكتوبر..

لقد اعتدت أن آخذ إجازتي السنوية من العمل في هذا الشهر تحديداً، الأجواء تناسبني جدّاً كوني أكره الصيف والشتاء أيضاً..

لكن هذا الشهر يجعلني متوازنا نوعاً ما.. وشهر مناسب لأبتعد به عن منزول والشاهي الذي يعده بيديه اللتين تحملان رائحة الكلور دائماً، أشك أنه يغتسل به كل صباح..

لقد أخبرت العاملة الآسيوية ألا تأتي للتنظيف طوال هذا الشهر، أحتاج أن أستريح أيضاً منها، في الآونة الأخيرة كانت تخبرني بأشياء لا تعقل وكأنها تحاول أن تبث بي روح التشجيع لأكون نظيفاً ومرتباً على الدوام، أو أنها تهزأ من الذي تجده..

فأنا شخص فوضوي جدّاً وهي تصر أنها في كل مرة تأتي تجد المنزل مرتباً والأواني مغسولة والأرضية نظيفة وحتى فناء المنزل نظيفاً..

كيف هذا وأنا كل يوم أخرج كل قمصاني لأختار قميصاً يحتاج لكي أو بنطالاً يحتاج لإصلاح زره الأمامي!

أشرب بكوب قهوة الأمس ولا أمانع لأن كل الأكواب متسخة، صالتي عبارة عن منفضة سجائر وأوراق متناثرة، أنا أكتب كثيراً حينما أود الصراخ، لكن لا أعرف متى يتوجب علي أن أضع نقطة، لهذا أنا أنزع الورقة وأرميها بعيداً، سرير غرفتي مليء بفتات الخبز، حيث إني أتناول وجبة العشاء على السرير، وأحياناً يمتلئ بقشور حب القرع الأبيض عندما يطول السهر ولا مبرر لفعل شيء آخر غير الأكل بطريقة مقلقة، وهذا

الحب كلما أكثرت بتناوله تشققت شفاهي من ملحه وارتفعت نسبة توتري لكني في كل مرة أفعلها، وجدت مؤخراً أن النوم لا يترك لي متسعاً لنفض بقايا الأكل وقشور حبوب القرع من على لحافي، أتدثر وأغط بنوم عميق، ذاك الرصيد الذي جاءني من المدير ومن العجوز كنعان، كان رصيداً مشبعاً، أغط بالنوم لساعات طويلة..

هذا الشهر أريد أن أكون وحدي دون أحد يطرق علي بابي، حتى أنه لا أحد يأتي لي منذ أن سافر سام اللعين الذي أعطيته البعثة وطار بها..

لا بأس أنا أحتاج هذا الغياب منه..

هذا الشهر سوف أثقب كل جدران بيتي لأبحث عن تلك السمراء التي جاءت لي من الحلم وجلست على طرف سريري، ثم ذابت بجدران بيتي، أسمع ركض خطواتها الخفيفة وصوت ضحكاتها وأنا أبحث عنها لكني لم أجدها بعد، إنها نفسها الأنثى التي تزورني بالحلم، ذات العنق الطويل والشعر الأجعد..

وربما أحتاج أن أستريح قليلاً ربما يفك عني كنعان ويتوقف عن زيارتي كل ليلة، ربما هو غاضب لأن زينة زوجته تفضحه بهذه المذكرات التي أقرؤها الآن..

اليوم الأول من حريتي أقصد إجازتي من العمل.. دائماً أرجو أن تأخذني حريتي للمكان الذي أستحق للمكان الذي لا يدفعني للتبرير عن خطأ ولا يحملني عناء المجاملة ولا يرهقني بالنصيحة ولا يتلف روحي بالانتظار.. أشعر أنني أقطع نفسي كل يوم وأوزعني على المتسولين للحياة.. كل واحد

منهم يأخذ من روحي شيئاً يستعمله حسب حاجته ولا يتبقى مني شيء لي..

العمل بالنسبة لي هو أن أمضي مجبراً بطريق لا أحبه.. أنجز وأقدم لكن بجهد، المشكلة ليست بالمكان فكل الأماكن لا تعجبني، أريد أن أكون هنا بوسط غرفتي متمدداً على أريكتي أدخن سيجارتي وأفكر بحيلة للنوم.

الساعة التاسعة صباحاً

لقد صحوت متأخراً هذا اليوم، صحوت راكضاً حتى وصلت إلى صنبور الماء وفتحته فوق رأسي تذكرت أنني مجاز ولا عمل ينتظرني، لقد طارت تلك اللذة التي كنت منعماً بها، لذة النوم، عرفت أن حواسي تقود جسدي وحواسي وجسدي يقودها عقلي الباطني الذي اعتاد على مسيره أعواماً من العمل والانتظام به بكل صباح خرجت متضجراً من دورة المياه واتجهت ناحية النافذة وأظن أنكم عرفتم الآن علاقتي بالنوافذ، واحدة أطل منها على الشارع وجارتنا العجوز والأخرى على الشارع أيضاً، بكل الأحوال أنا أحمل هوية المتطفل الذي يشرب سيجارته وهو يفضح عورة الشارع ويستبيح أسرار كل العابرين به، النافذة تتوسط غرفة الجلوس فتحتها لتدخل الشمس وتفترش بوسط منزلي لعلها تخرج منه رائحة الفوضى الموجودة، هل قلت فوضى؟! لعلي أذكر نفسي بالفوضى التي تحتاج لترتيب لكن لا شيء حولي يحتاج لهذا.. ذهبت لغرفتي، لسرير نومي الذي نهضت منه منذ دقائق، فوجدته مرتباً، أنظر باتجاه الكرسي الوحيد بالغرفة والذي كان عليه مذكرات زينة وثيابي التي رميتها عليه وحقيبة أوراقي.. لكن لا شيء فوقه.. فقط الكرسي، ألتفت بحذر تجاه المرآة التي كسرتها بالأمس حينما نظرت للظل الذي توهمته موجوداً.. لكن المرآة لا خدش فيها ولا كسر وكأن أحداً أعاد إصلاحها..!

سكت قليلاً ثم قلت في نفسي وهل يعقل أن الخادمة الآسيوية العجوز صدقت؟!

حينما كانت تخبرني أن المنزل مرتب ولا يحتاج لوجودها!

إذاً من يقوم بهذا كله وأنا وحدي في المنزل؟!

توقفت قليلاً لأسترجع ذاكرتي البلهاء.. من أزال بقع الدم عندما جرحت؟ من أخذ كيس المصابيح من السلم ونقله لغرفتي؟ من أصلح الإنارة التي انكسرت؟ من قلم الشجر الذي كان يحجب نور الشمس عن غرفتي! ثم من كان يسعل كلما أشعلت سيجارة!

إذاً هي السيجارة من ستخبرني بهذا كله..!

أخذت خمس سجائر ووزعتها بفمي بين شفاهي النحيلة وأشعلتها جميعاً دفعة واحدة وصرت أخطو بخطوات متأنية بكل أرجاء الغرفة وأنفث، مرة للسقف ومرة للأرض ومرة باتجاه السرير.. لكن لم أسمع صوتاً. وأخذت خمس سجائر أخرى وجلست أدخنها وبالطريقة نفسها..

حتى صرت أنا من يسعل، وتعالى صوت سعالي فسمعت صوت ضحكة أنثوية هامسة من خلفي، التفت وأنا محمر العينين متعب من السعال وبشعر أشعث ووجه مرهق كعادته، وإذا بها السمراء التي تزورني بالمنام، هي كما شاهدتها أول مرة.

عنقها الطويل ووجهها المستدير وحواجبها الصغيرة المتباعدة وعيناها اللوزيتان وجبينها المرتفع وشعرها الأجعد والخصلة الحمراء التي كادت تقتلني بالتوائها وهي منحدرة على وجهها، أتأملها ولست مصدقاً أن فتاة الحلم تزورني بالنهار، اقتربت منها وأنا أهمس: لا تغيبي، لا تركضي بعيداً لن أوذيكِ.

اقتربت بخطوة ثابتة هادئة. مددت يدي ببطء شديد أمسكت بذقنها الملساء المدورة الصغيرة.

رفعت رأسها بخجل وهي تنظر لي..

وقعت عيناها تجاه عينيّ مباشرة.

قلت وأنا أزفر بإعجاب:

- أوه

بتبسم قالت دون أن أسألها:

- أنا كمد.

قالتها وهي تميل برأسها قليلاً بحياء وترفع كتفيها الصغيرتين عند عنقها..

يا الله!

هذا ما قلته فقط..

(إنها كمد يا سادة)

لقد لمست كفيها لأتحقق من أنها ليست ظلًّا ولا وهماً ولا خيالاً، لقد كانت دافئة جدّاً لكنها خجلة فسرعان ما سحبت كفيها من بين يدي، سألتها من تكون وكيف جاءت إلى هنا..

كنت على يقين أن الأرحام لم تنجب أمثالها، ظننت أنها ملاك حط من السماء وهبط بغرفتي، لا أومن كثيراً بالقصص الخيالية لكن هذه المعجزة المسماة بكمد ماذا تكون؟!

- من تكونين يا ملاكي؟

- وهل تطيق سماع هذا؟ لن تصدقني!

- بالطبع يحلو لي سماع ما تقولين ولأي جنس تنتمين وحتى لو كنتِ مخلوقة من عالم آخر لا أعرفه.

تبسمت وقالت:

- نعم من عالم آخر، عالم لا يشبهك ولا تنتمي له لا فصيلة ولا رحماً ولا منشأ ولا خلقاً أنا كمد ابنة كبير الجان، أنا ابنة غيلان.. حاكم أرض العوسج وكل الممالك من حولها..

كانت تقولها بنبرة قوة وفخر ومهابة.. بنبرة تهديد لمن يحاول أن يقترب منها..

لا أخفي عليكم فزعي لحظتها، لقد تركت أكف يديها واصفر وجهي وتلعثم حرفي حتى أني لم أرد عليها، ظننت أني بحلم جميل وحوار

أجمل.. لكن أن أكون مع جنية بغرفة واحدة! أي بلاء هذا جاءت به الهلوسات.!

نفثت عن يميني ثلاثاً وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، تراجعت خطوات للوراء وهي تنظر بعيني مباشرة، لم يفزعها شيء..

قالت : يا هذا..

لقد كنت هنا لأشهر مضت، لا تراني ولكني أعيشك، أعيش فوضويتك التي أرتبها كل يوم، أعيش أرقك الذي أرقبه حتى غفوك، أعيش وجعك الذي لم تفصح عنه، أعيش جنونك الذي يقودك للقتل، أعيش لذة الانتصار وأحظى دائماً بشربة من كأس عصيرك بكل احتفال تفعله، أرقص معك وأصفق بحرارة..

أنا التي جئت معك من المقابر من لحظة زيارتك لأمك، لقد كنت عالقة بحزنك، مثلما علق تراب المقابر بثوبك، ومثلها علقت كل ذكرى برأسك.. من المقابر وربا من وقت قبلها بكثير، الأيام ستكشف لك كل خافٍ لا يخفى أنا من يختار كيف أخفيه وأنا من يختار كيف يعيش وفوق أي صدر أنام ومع أي قلب أنبض..

أنا كمد ابنة غيلان

جنية والسيدة الأولى بأرض العوسج، ومعي حاشية عن يميني وعن شمالي وهل بعد هذا ستنفث ثلاثاً مني؟!!

سكت طويلاً دون جواب، انتظرت مني ردّاً لكن الصمت كان يسود، ربما صمت وربما ذهول وربا خوف من هذا الزائر الذي يعرفني أكثر مني، لقد دبرت لصديقي سام رحلة طويلة كي لا يكون شاهداً على ما أفعله، فكيف بهذه التي شهدت كل شيء وحتى الذي لم أفعله بعد!

ثوانٍ واختفت.. وكأنها لم تكن هنا.. ومثلما كانت تفعل في كل مرة، ظل خفيف يسكن الجدران ويختفي.

ماذا يعني أن يسكن معك شخص آخر دون علمك دون إذن منك، يشاركك الغرفة والجدران والطعام والأسرار، فكرة لم تكن محببة لرجل مثلي اعتاد على الوحدة وتصالح مع الظروف، شخص يعاني من الأرق ويسكنه مارد سفاح لا ينوي الفكاك منه، أنا لا أطيق حتى أن أرتدي ملابس لأنها ملاصقة لي وأقضي يومي كله عاري الصدر، نعم أعجبت بهذه السمراء ولكن كنزوة حلم لا واقع، فكيف وإذا هي جنية، ربكا أخترقها وأنا أقبلها وربما تخترقني وتتلف أحد أعضائي الكبد على سبيل المثال لتأكله لتعبر عن حزنها، فكرة وجود الإنس غير محببة فما بالكم بجان؟!

جهزت حقيبة ملابسي وقررت أن أترك منزلي لأيام.. حتى تبحث عني ولا تجدني لتخرج هي وأعود أنا.. فكرة الهروب لم تكن من ضمن خططي يوماً لكن الهروب الآن بمثابة لعبة الغميضة التي نلعبها ونحن أطفال أغمض عيني وأعد للعشرة لأفتحها مجدداً ولا أجد أحداً أمامي، سأغمض عيني وأعد للعشرة، ولكن خارج المنزل، لتختبئ هي وحاشيتها وتنتظرني أبحث عنها، لن أبحث وسأظل أعد للعشرة وكل مرة أنتهي من العد أعد

مرة أخرى، سأجعلها تنتظرني ولن تجدني، سأدع لها المنزل لتعيد ترتيبه وربا تأثيثه وربا بيع كل ما فيه، سأدعها تأكل من طعامي وتشرب العصير وترقص وحدها على ضوء الشمع، لن أكون الشريك الذي يشاركها كل هذا ودون رغبة منه.

لا يوجد لدي حقيبة بغرفتي، في الواقع لم يكن لدي حقيبة سفر اخرج جيدة فمنذ فترة طويلة لم أسافر.. تذكرت حقيبة سفر كانت بغرفة أنا لسـ أمي، ربيا تعود لها أو لوالدي، لا أعرف تحديداً لكنها إرث لي وتفي أن أذكر لـ بالغرض..

نزلت على السلالم بخفة وحذر أن تسمع صوت وقع لأقدامي.. دخلت غرفة أمي بحذر أيضاً ليس خوفاً من تلك الجنية ولكن كانت أمي تأمرني دائماً بهذا، غرفتها هي المكان المقدس الذي يتوجب علي عدم دخوله بغيابها، ولكن غيابها هذا أبدي لهذا يحق لي..

لقد كانت هذه الحقيبة فوق خزانة الملابس، سحبتها فتطاير الغبار على وجهي ونثر على قميصي، أنزلتها أرضاً وبدأت أنثر الغبار عن رأسي وإذا بها تزيح الغبار العالق على صدري، إنها كمد

أرعبني ظهورها المفاجئ وبهذه الطريقة

أنزلت يدها من على صدري وقلت:

سأترك هذا المنزل لك لن يلزمني بعد الآن.

- أينما تذهب سأكون معك

وما الذي تريدينه من رجل مثلي؟!

- اريد جبران

جبران مجرد جسد هزيل لا يصلح لعالم الإنس ولا لعالمك الجان اخرجي من بيتي أو أخرج أنا !

أنا لست وحدي هنا.. فحاشيتي معي من خدم وحرس، هل تحتاج أن أذكرك أني ابنة غيلان؟!

حاشية!

الله الله

بين قبيلة جان أسكن، أي حظ سعيد أنا به يا الله؟!

ركضت مسرعاً وأطرافي ترتعد لأجمع ملابسي وعلى عجالة، حتى أنني خشيت أن أكون وضعت أحد حاشيتها بين ملابسي وأقفلت راسة عليه.

خرجت من المنزل وأنا أردد كل ما أحفظه من تعويذات وآيات.. أمسح رأسي وأقضم شفاهي وأنظر يمنة ويسرة، لعل أحداً سيعرقل قدمي أو يكبل يديّ أو حتى يعيدني بالقوة للمنزل..

ركبت سيارتي ولا أعرف إلى أين أتجه، لكن طرأت لي المحطة التي بنهاية الشارع من حي يبعد عن حينا دقائق، عرفت بها ملحقاً بغرف تؤجّر بإيجار يومي، المكان يفتقر للنظافة، ولم يكن مؤهلاً حتى لسكن. القطط، الكثير من منزول أراهم هناك، ربما لأنها الأقل سعراً، لكن كنت

أعبر عن غضبي وأسكن بمكان كهذا، فابنة حاكم الجان لن تستطيع أن تبيت بهذا المكان وحتى لو كانت عالقة من المقابر، فالمقابر أفضل من هذا المكان.. لقد نويت أن أخرج ولو لليلة واحدة، لعلها هي تخرج من بعدي ثم أعود لمنزلي، لقد كان الليل طويلاً جدّاً وكأنه ذهب رصيدي من النوم كاملاً كنت أحسب أن وفاة كنعان أبقت لي أشهراً لم تنته بعد، لكن يبدو أن ظهور كمد هذا سلب رصيدي بالكامل، لا حبوب منومة لدي، لا شيء يدعوني للنوم، المكان تفوح منه رائحة طعام أفغاني، وكان لا شيء غير البصل والفلفل الحار يطبخ هنا.. لقد حاولت النوم كثيراً أغمضت عيني وأوهمت نفسي أني بسريري وحولي تعج الفوضى لا بأس بها، ولكن الفوضى هنا لها رائحة تقتل..

خرجت أتنفس هواء نظيفاً خارج النزل، معي سيجارة وأنتعل تعال أحد العاملين فهو أقرب لي من لبس حذاء رياضي بهذا الوقت.. خرجت أتمشى حتى كدت أقترب من منزلي، أدخن سيجارة وأبتلع دخانها خشية أن تسعل كمد وتشتم رائحتي هنا، كلبة جارتنا العجوز تشتم رائحتي أيضا ها هي بدأت بالنباح كعادتها عندما تشاهدني،

أعرف ما سبب كرهها لي أنا لم أفعل شيئاً سوى أني خلصتها من اثنين من صغارها كانا يصيحان جوعاً وهي منشغلة بإرضاع البقية أخذتها لأدسها بجانبها لكن أعناقهما كانت طرية وشهية لهذا لم أقاومها وانتابتني رعشة لذيذة جعلتني أخنقها تحت يدي، ربما هي لاحظت هذا، لهذا هي تنتظر لحظة تفك العجوز وثاقها لتفترسني.

نباحها جعلني أعود أدراجي رجوعاً حيث الغرفة الرطبة بالروائح، جلست عند باب النزل حتى أشرقت الشمس، لم أكن أفعل شيئاً سوى أنني أتابع الفراغ وأستجدي النوم دون جدوى.

هناك من حكم عليَّ بهذا الحكم الجائر حكم الأرق والتعذيب بالسهر، ربما هناك من يعاقبنا على أفعالنا بلحظتها، أنا لا أصلي ولا أصوم، لا أذكر متى صليت صلاة فرض فلقد اعتدت على صلاة الجنائز فقط، الصيام كنت أتظاهر به أمام أمي لكني أشرب الكثير من الماء بخلوتي، أنا لا آكل في نهار رمضان حتى أحافظ على رائحة فم الصائم فأمي تكتشف هذا سريعاً، لم أكن أحب الأعمال الدينية التي يفعلها الجميع بالفطرة، حتى الفريضة التي يتقاتل الناس لأدائها وهي الحج، لم أفكر يوماً بها..

الجرائم التي أمارسها مؤخراً ليست بجرائم، هي فقط تسريع الموت لمن عُذب بحياته ويود الرحيل، أنا لا أقتل بشريّاً في مقتبل العمر.. أدعه يعيش الحياة ليكتشف كم هو أحمق بهذا..

أنا فقط أشفق على كبار السن وعلى من يستحقون الموت لأني أشفق على الناس من حولهم.

(النساء قدرتهن على الأذى لا حدود لها)

جبران

مرت أيام على عودتي لمنزلي، لأصدقكم القول أني افتقدت الملاءات البيضاء النظيفة، والغرفة المرتبة وأدويتي المصفوفة، ومذكرات زينة التي كانت دائماً بجانبي كلعنة من كنعان لأقرأها كاملة، افتقدت الأرضية اللامعة، صار الهدوء بمنزلي كئيباً، وعادت روائح القامة تفوح مجدداً بعد أن نسيت رميها كالعادة، حتى الخادمة الآسيوية لم تعد ترد على اتصالاتي، عرفت هنا أن كمد خرجت من المنزل هي وحاشيتها من الجان.

لا بأس هذا ما طلبته وما أريده أنا، لا بأس أن تعود الفوضى لكن في سبيل أن أكون وحدي دون جان يسكن معي وبدون إذن مني.

كل ما يقلقني الآن هو أين ذهب رصيد النوم الذي جمعته، لماذا خروجي وربا غضبها جعل رصيدي يتبخر، كيف لي أن أنام الآن؟ فمنذ الأمس وأنا يجلدني الأرق! تذكرت ذاك المستشفى المختص بهولندا والذي أنشأته خصيصاً للموت الرحيم لمن يريد أن يضع حداً لحياته يقرر له الأطباء كيف يموت، بشرط أن يكون قد عانى طويلاً مع المرض، أظن هو المكان الأنسب، لأني سوف أقدم خدمات نقل أرواحهم من الدنيا للآخرة مجاناً وأحظى بنوم كاف ممتد لسنوات.

لا أريد أن يذهب ما تبقى من إجازتي كله على هذا العذاب..

أمسكت بالكأس الذي بجانبي ورميته على الجدار الذي أمامي ليتهشم هو وأنظر له أنا وكأني أنتظر حاشية كمد أن تأتي لتنظفه..

هاتفي يرن، هاتف المنزل الثابت وقليلاً ما كان يرن.. تناولته بيد وضعت الساعة على طرف شفاهي وقلت بصوت خافت مثقلة متعب:

- نعم؟

جبران؟

هل أنت تسمعني ؟

- أسمع من معي؟!

لقد كان صوت امرأة خافت هو من يتصل، لم أعتد على اتصالات تأتي من حناجر ناعمة

- أنا ثريا زوجة سام،

تعلم لما اعتدلت بجلستي ووضعت السماعة جيداً على أذني فصوتها كان خافتاً بعيداً ويرتجف

- لقد نقل سام بإخلاء طبي لتدهور حالته الصحية وهو يريد رؤيتك الآن

هو يرقد في العناية المشددة.

لا أخفي عليكم سرّاً كيف لمثل هذا الخبر أن يؤثر بي، لقد سافر ببعثة وهبتها له، هل يعقل أني أرسلته لمثل هذا المصير ؟!

خرجت على الفور لزيارته، لقد كنت أفكر طوال الطريق بكل ما دار بيننا، من مزاح ونقاش وعتب ومن سر يعرفه هو لا غيره، لقد أوجست في نفسي أن يكون قد أخبر زوجته بكل شيء عنى وكأنه يوصيها أن تحمل

خطيئتي وجرائمي لتلوح بها أمام وجهي فيها بعد فالنساء قدرتهن على الأذى لا حدود لها.

وصلت لصديقي سام، لم يكن دخولي لهذا المكان بالشيء الهين لولا توسلات زوجته للطاقم الطبي بضرورة مقابلة سام بطلب منه شخصيّاً.

لقد لبست قفازات مطاطية وثوباً أزرق شفافاً وقبعة رأس من البلاستيك الخفيف، كحماية من الفايروسات لمن ينتظرون الموت بغرفة العناية المشددة.. بدخولي كنت أنظر للأسرة الممددة عليها كل هذه الأرواح والأسلاك موصولة بهم وطنين الأجهزة يعلو لقد شعرت بالنشوة نفسها، تلك النشوة التي تدفعك لالتهام رقبة أحدهم خنقاً لقد كنت ألملم أصابعي وأفركها وكأني أقيدها لئلّا تفعل شيئاً بيوم كهذا، تصحبني زوجة سام لسريره، يا للجرذ الضخم الذي ينام هنا! إنه سام يبدو شكله وهو متمدد أكبر بكثير مما اعتدت عليه، لكن وجهه كان مسودّاً وذابلاً وتحيط هالات سوداء حول عينيه وبالفعل كان يشكو من مرض عضال لم أسأل حتى عن سببه، أو سبب الأزمة المفاجئة التي حلت به، لقد كانت طوال الوقت زوجته تتكلم وتبكي وأنا أكره دموع النساء لهذا لم أكن منصتاً لما تقوله.. كانت تحكي بداية مرضه البسيط الذي تحول فجأة لكارثة ونقل على أثرها مُعاداً لموطنه..

كانت شفاه سام تتحرك ببطء وكأنه يقول شيئاً، طلبت من زوجته أن تخرج قليلاً لأسمع ما يقوله سام، في بداية الأمر قالت إنها ستكون أكثر هدوءاً لكن سام أشار لها بعينيه يطلب منها الخروج..

اقتربت من سام

أهلا يا صديقي، لا عليك سوف تتحسن قريباً

أقولها وأنا أمسح على رأسه

لا يزال سام يود قول شيء لي

اقتربت منه أكثر لأسمعه حتى لاصقت اذناي شفاهه

- اقتلني يا جبران

هذا ما قاله سام

رفعت رأسي وأنا أهزه وأقول لا، أنظر للباب حيث تقف زوجته وهي تتحدث لإحدى الممرضات خارجاً..

أعاد الكليات أنفسها

- اقتلني لا أريد لزوجتي أن تتعذب معي هنا، أنا ميت بالفعل، أنا متعب ولا شفاء لي.

نظرت للباب نظرة خاطفة عيناه تنظران لي تتوسلان الخلاص شد على كف يدي وكأنه يقول: افعلها الآن..

رفعت يدي ووضعتها على أنفه وفمه وأطبقت عليها وعيناه شخصتا فجأة وبسرعة بوجهي وعلى أهدابها دمعة سقطت مع انقطاع نفسه، لم أمهله ليكرر طلبه ثانية، كنت أتصبر منذ دخولي ألّا أفعلها بأحدهم، لكن السفاح بداخلي كان يدفعني لهذا..

ثوان فقط وفاضت روح صديقي سام، رفعت يدي من عليه وقبل أن أغمض عينيه، صاحت الأجهزة تشي بفعلتي هذه، وإذا بوفد من الأطباء يتسارعون لغرفته ويحاولون إنعاش قلبه وأنا أنظر لهم وبداخلي ابتسامة عريضة أخفيها تحت وجهي الحزين.

لم ترتعش أطرافي حتى مع صراخ زوجته الذي ملأ الممرات، لم ينبض قلبي بشدة وأنا أتابع رحلته الأخيرة للسماء، لقد قتلت أمي قبله، فكيف بصديقي؟!

لقد كان سام طوال عمره يكره أن يكون ذا عبء على أحد، لقد اختار طريقة موته ولو كان هذا أكثر مشقة، هو يريد الراحة لزوجته وأطفاله وأسرته وربما يريد الراحة لي أنا أيضاً..

ربتٌّ على كتف زوجته أحاول تهدئتها لكن صوتها المزعج كان أكثر من أن أطيقه، لقد خرجت على خطاً متسارعة معي نشوة تعتريني وشيطان يصفق ويهتف بداخلي، لقد عدت لمنزلي رميت بمفاتيحي بعيداً ورفعت يدي وبدأت بالرقص والغناء، لقد رقصت على أكثر الأغاني المحببة لسام نزعت قميصي وبنطالي وبقيت بملابسي الداخلية، شربت كثيراً ودخنت الكثير من السجائر، نثرت أوراق المناديل وكل الورق الموجود على مكتبي، كنوع من الابتهاج والاحتفال وأسدلت الستائر، أصفق تارة وأرقص تارة، وأضحك بصوت عال جدّاً وأبكي بصوت أقل.

هذا الاحتفال الذي أصنعه بعد كل ضحية أرسلها للسماء، سام هو الأقرب وربها الصديق الوحيد لدي، لقد مات يا سادة وانتهت الحكاية.

مات صديق طفولتي وشبابي، الصديق الذي يسمعني ويحتويني، مات الأخ الذي يسندني ويعينني، مات الكتف الذي أسند عليه رأسي وقت المصاب، لقد قتلته، لم يقاوم بل توسل لي بتينك العينين اللتين طالما نظرتا لي بحب..

لقد اختار رحلته الأبدية أن تبدأ مني، لم أسأله عن السبب لم أتردد لم آخذ نفساً قبل أن أقدم على ما فعلت، كل شيء كان هادئاً وسريعاً..

لقد مات سام

لنطفئ الشموع فأهلاً برصيد نوم يمتد لعام من الآن.

إليك هذا التمرين الروحي : لا تتعلق لا تفكر لا تسأل ولا تنتظر.

لقد نعمت بنوم طويل، ربما امتد لأيام، لقد صحوت جوعاً وكعادة معدتي تنغص دائماً عليَّ منامي وتجبرني على الصحو، عرفت أنني نمت ليومين متواصلين، أجزم أنني كنت فاغر الفاه لأني أشعر بوجع بفكي في الواقع جميع مفاصلي تؤلمني، تبقى يوم وينتهي عزاء سام، ربما افتقدني الجميع في الأيام الأولى كوني صديقة وقاتلة

قاتلة!

أسرها بنفسي أخاف أن نفسي بنفسها تفضحني.

وصلت إلى العزاء لقد دخلت بأعين متورمة من النوم ووجه منتفخ من الساعات التي قضيتها بفراشي، ووجه أصفر لقلة التغذية طوال اليومين السابقين.. لقد حضنني أخو سام الأكبر وبدأ بالبكاء وضعت يدي على ظهره مجبراً، وقال لي إن فراق سام أوجعنا جميعاً.. لقد ظن أن أثر النوم على وجهي هو من البكاء!

لقد وضع لي أسباب عدم حضوري للعزاء دون أن أتفوه بكلمة

نحن نعرف ماذا يعني لك سام ونقدر عذابك النفسي الذي منعك من الحضور، أعاننا الله جميعاً

رددت بصوت منخفض وفم جائع :

اللهم آمين..

كنت طوال الوقت جالساً وأنظر لابن سام الوحيد الذي يبلغ من العمر سبع سنوات، وأقول في نفسي: لو أنني تزوجت مثل ما خطط سام أن يكون زواجنا في ليلة واحدة لكان لدي أنا أيضاً طفل بعمر إياد

إياد هو ابن سام

دفع أخو سام الأكبر إياد من كتفه وهو يشير لي أي يعرفه علي من بعيد ويطلب منه الذهاب ليلقي عليّ التحية

لكن إياد ظل ينظر لي من بعيد ولم يتحرك، إن لديه نظرات والده التي تخيفني دائماً، عندما يكون يعلم ما أخفيه دون أن أتكلم، برأس مطأطأ أنظر لمن حولي ثم أنظر له وأبتسم لكنه لم يبادلني الابتسامة، لقد كان ينظر بوجهي مباشرة لم يخفه تورم أجفاني ووجهي من الرصيد الذي منحه لي والده من النوم مشكوراً قبل رحيله.

لقد كانت نظراته تتبعني حتى وأنا أغادر، وكأنه يريد أن يقتص مني..

أنا أعرف ماذا هذا الصغير لوالده لهذا فضلت الخروج من المكان قبل أن أوجع له قلبه وقبل أن يشتم رائحة أنفاس والده التي يعني كتمتها بيدي.

نظرة إياد بن سام كلفتني كثيراً، لقد عدت ومعي ثقل أجره خلفي، وكأني أحمل جثمان سام فوق أكتافي، لكن سام هو من طلب مني وأنا لم أتوانَ لحظة لم أسأله حتى إذا كان طلبه هذا من جزع أو لاستدرار

عاطفتي، لقد فعلتها بكل ما أوتيت من شغف ولهفة.. لمن أحكي ما أشعر به الآن؟

كنت أرددها بصوت خافت أسمعه أنا، لمن أحكي ما أشعر به، من ينتشلني من المقابر ويربت على كتفي، من يجهز لي ضحية ويدلني على طريقة موتها لأنعم أنا بنوم عميق، من يهبني روحه ليجازيني برصيد نوم طويل، من سيكون لي سام مرة أخرى ؟!

سمعت صوتها تقول لي : أنا يا جبران..

التفت برأسي وإذا هي كمد تجلس خلفي مباشرة بابتسامتها التي أجزم أنها مصنوعة من الزمرد تلمع لتسرق قلبي..

ما الذي جاء بك مرة أخرى ؟!

أقولها وأنا أصد بوجهي عنها

- أنا هنا هذه المرة وحدي اطمئن.

اخرجي من حياتي يكفي ما سلبتِه من رصيد نوم كنت محتفظاً به جمعته من ثلاثة أعناق!

اخرجي من حياتي فهذا الرصيد جاء لي دون تعب

رصيد دسم

أقولها وأنا جاد كطفل يمسك بلعبته التي حصل عليها بعد عراك طويل..

- أشعر بك أعرف مدى وجعك الآن !

من قال لكِ إني موجوع، من أخبرك أني أحتاج شفقة منك ؟

اخرجي وعودي لقبيلتك لا مكان لك هنا.

ظل تطاير واختفى هكذا ترحل كمد كل مرة.. بهدوء دون حتى أن تخبرني بهذا..

رحلت هي، لماذا ألتفت لأبحث عنها أنا؟!

خبر عاجل .. لا يهمك

الجرائد ما عادت تهتم بصفحة الوفيات، ما عاد هناك من يكتب عزاء ولا تعزية، أصبحت جميعها تهتم فجأة بالأحياء، لم تذكر الصحف عن وفاة كنعان شيئاً، لقد توقعت عنواناً بصفحة الجرائم أو ربما الأحداث أو حتى أخبار محلية (العثور على جثة رجل عجوز متعفنة) أو (الشرطة تحقق حول وفاة رجل وجد بشقته مقتولاً)

هذه العناوين التي لم أجدها في كل يوم أتصفح به الجرائد جعلتني أومن أن ما أقوم به هو تسهيل عميلة الموت لمثل هؤلاء البائسين، طويت الجريدة وأكملت رشفة فنجان القهوة والذي اعتدت أن أشربه بقهوة المصباح كل يوم ثلاثاء، جاء النادل بكأس ماء لم أطلبه وقال لي: هذه ضيافتك من القهوة كونك ضيفاً جديداً..

تبسمت وقلت له

يبدو أنك أنت الجديد هنا

- لا يا سيدي أنا هنا منذ حوالي سبعة أشهر

إذاً أنت جديد لأني أنا زبون دائم لهذه القهوة واسأل مصباح نفسه الذي يعد هذه القهوة اللذيذة.

- ما أعرفه أن السيد مصباح توفي منذ عام ونصف العام!

تبسمت لفكاهة هذا الشاب الهزيل

وقلت له:

إذاً أين الصبي الذي كان يقدم القهوة هنا، الطويل ذو الشعر الأجعد؟

- عذراً يا سيدي لكن منذ وجودي هنا لم يكن أحد معي يخدم الزبائن، القهوة صغيرة كما ترى لا تتسع للكثير من العاملين.

هل تمزح معي ؟!

أنا لا أعرف حتى كيف تكذب بشأن السيد مصباح وأنا أحدثه كل ثلاثاء وأشكره على مذاق قهوته؟

وكيف تكذب بشأن النادل الآخر وأنا حدثته الأسبوع الماضي وسألته عن رجل عجوز بدين كان يأتي إلى هنا!

- هل تقصد هذا؟

التفت للوراء حيث كان يشير الصبي بأصبعه، وإذا به بنظارته السميكة وبطنه المستديرة

وجريدة بيده ويرشف فنجان قهوته !

ناديت بصوت خافت

بصوت مرتجف متعجب : كنعان!

تبسم وقال : نعم أنا!

كانت فطائرك المحلاة لذيذة، لكن أنا عاتب عليك كيف قتلتني قبل أن أبتلعها كاملة !

ثم أعد لي مذكرات حبيبتي زينة، إنها خاصة وأنت وغد متطفل!

صرخت بصوت عال :

كيف يعقل أن تكون هنا وأنا من قتلك بكلتا يدي هاتين ؟! لقد خنقتك حتى فاضت روحك، لقد حظيت برصيد نوم لا بأس به، ثم إني زرت شقتك العلوية وشممت رائحة جثتك المتعفنة من خلف الباب وهربت.

- هربت ؟!

لأنك جرذ خائف من المصيدة، تعال أنا من أدعوك هذه المرة للعشاء، أحضر الفطائر المحلاة وكتاب مذكرات حبيبتي زينة.. أنتظرك لا تتأخر

صرخت بوجهه : لن آتيك، لن أدخل شقتك !

- صرخت بصوت عال حتى جرح صوتي وكأني ابتلعت سكيناً حادة وظلت عالقة..

صحوت من نومي وأنا أصرخ ووجهي يتصبب عرقاً ويشتعل حرارة، أشعر أن الحرارة تخرج من جوفي وكان هناك موقداً مليئاً بالحطب أشعله بي العجوز كنعان ومضى، ليحرقني أنا وكتاب حبيبته زينة.

لقد كان كابوساً مزعجاً وصحوت منه متعباً جدّاً.

نهضت من سريري فتحت نافذة الغرفة أخرجت رأسي بالكامل لأستنشق هواء نظيفا، لقد كانت رائحة كنعان تملأ رئتي، ووجهي يتصبب عرقاً،

ليس خوفاً ولا رهبة ولكن كيف يعود من رحلته الأبدية ليخبرك أنه سينتقم منك وبكل حماقة !

إنها الثانية فجراً وصوت صراخ السيدة العجوز بهية يعلو كعادتها وهي تتشاجر مع ابن أخيها المدمن، لا شيء جديد، لقد اعتاد كل من بالحي سماع أصواتها غير أني أمتلك ميزة تتبع رؤوسها من النوافذ كون منزلهم ملاصقاً لمنزلي والنوافذ لا يحجبها ستائر، فالعجوز لم تغلقها مطلقاً، هي تسمح بدخول الشمس والأغبرة والمطر وورق الشجر، وتسمح لصوت شجارهما أن يخرج، النافذة الوحيدة المغلقة هي نافذة غرفة الشاب (راجح) لقد كان اسمه بعيداً جداً عنه، من قال إن لنا نصيباً من أسمائنا؟!

أغلقت نافذة الغرفة بدوري طالما سيدتنا العجوز تسمح بتبخر أصوات شجارهما، عدت لسريري محاولاً النوم

أنظر للطاولة التي بجانبي وإذا بمذكرات زينة الصفراء، لا أقصد بالصفراء زينة وإنها الأوراق، ربما تكون زينة صفراء أيضاً فالذي ينتظر طويلاً يقتله الخريف.

تناولتها بيدي لقد كانت بعيدةً نسبيّاً لكن أصابعي تمتد ولديها مرونة للالتفاف والوصول أيضاً.

ثنيت ركبتي ورفعت رأسي قليلاً وفتحت الصفحات بطريقة عشوائية، ربما قراءة التفاهات تجلب لي النوم من جديد، وربما هي حيلة لأجعل

العجوز السمين كنعان يغضب مني ويعود لي كحلم آخر وحينها أستطيع قتله للمرة الثانية.

من زينة إلى كنعان
الرسالة الخامسة عشرة

لقد وجدت قُبلة على ياقة قميصك بالأمس، بلون أحمر شفاه ليس لي، أعرف أنك تحب هذا اللون ولكنه غير لائق لوجهي وقلتها لك مراراً إن الأحمر بهذه الدرجة هو لون الغانيات بائعات الهوى وأنا أنثى يحكمني الهدوء وتنحكم بي العاطفة وتأخذني الدمعة لأبعد مما تتخيل.

فتخيل أن بدرج غرفتي واحداً من هذا اللون الذي تحب تخيل أني وضعته ليلة الأمس وانتظرتك

كنت أنظر لنفسي بالمرآة وأضحك تارة وأبكي تارة أخرى

تخيل كيف تكون مجبراً أن تكون أجمل مما تبدو عليه حقيقتك،

أن تستخدم ألواناً صارخة لتعليَ صراخك الداخلي

أن تتجمل وأنت مقتنع تماماً أنك بدونه أجمل

لقد وضعت لك اللون الذي تحب، وانتظرتك حتى الثالثة فجراً غفوت وأنا متكئة على يدي فلطخ اللون جسدي..

صحوت وإذا بي أسمع صوت خطواتك نحو الغرفة..

أزلت بكلتا يدي لون أحمر الشفاه من على وجهي وذراعي، ولقد كنت مجرد مهرجة يملأ وجهها الألوان الملطخة.

لم تنتبه حتى لهذا

لقد كانت رائحة الخمر تفوح منك وأيضاً رائحة النساء.

لقد تمددت على السرير ولم تخلع حذاءك

أنا من قام بهذا، لقد دثرتك كما تدثر الأم طفلها المتعب..

وها أنا اليوم أغسل ياقة قميصك وأمحو أثر قبلة زاهية حظيت بك لليلة كاملة..

أنا لست آسفة على نفسي، أنا فقط أكتب لك هذه الرسالة وأنا أضع اللون نفسه على شفاهي وبطريقة مرتبة هذه المرة، لولا أني أخشى أن دمعي الآن أفسده..

زينة.

أتعجب من زينة كثيراً كيف لها أن تطيق رجلاً مثل كنعان، وما الذي يدفعها للصبر والبقاء، لكنها تؤكد لي في كل مرة أنه يستحق الموت ويستحق هذه النهاية.

رميت كتاب زينة أقصد المذكرات بعيداً عني وأنا أشعر برجفة بداخلي، وعلى ما يبدو أني أصبت بحمى، فهذا البرد الذي يسكنني ليس من كلمات زينة وإنها من فايروس لعين اختار الجسد الخاطئ ليستوطنه..

لا تذكر أحداً بأنك غائب
من يحبك سيكتشف هذا بنفسه..

لقد مرت ثلاث ليال طوال، ما زلت أرقد في فراشي البائس كصرصار مقلوب على ظهره وينتظر مساعدة أحد، ثلاث ليال لم آكل شيئاً إلا المسكنات لعلها تخفف من حماي، لكن معدتي تشتعل وكأنها تصرخ من ثقل الدواء وهي خالية، لقد اعتادت معدتي على الدواء منذ سنوات وبصفة مستمرة، لقد كنت أمرنها على الاستجابة، ولكن لا فائدة فكل الأدوية التي أخذها أنا أصرفها لأماكن أخرى تنتهي بدورة المياه.. وكأن معدتي استقالت منذ وقت محتجة على تكرار الأدوية ذواتها ولسنوات..

أنا متعب الآن متمدد على ظهري أنظر للسقف وأتنفس من فمي، لصدري حشرجة وكأن أحدهم نسي عدته من المفاتيح بداخل صدري، ثقلها ومذاقها وصوتها أيضاً، يداي متمددتان هما أيضاً بجنبيّ، تهويان أرضاً كلما حاولت رفعها لألتقط شيئاً ما، أنفي متضخم أكاد أراه الآن وأنا متمدد، كنت أراه عندما أغلق أزرار قميصي وأنا واقف، الآن أصبح عملاقاً بما يكفي ليتباهى بعلوه وضخامته فوق وجهي النحيل، متقشرة جوانبه محمر من استعمال المناديل، رطب من الخارج وجاف جداً من الداخل، يفيض بغزارة كلما حاولت الجلوس..

أجفاني ترجف متذبذبة حتى الرؤية أصبحت ضبابية ربها أصاب بالعمى وأنا أحاول جاهداً أن أدرب عيني على بقايا النور وأجاهد من أجل إبقائها مفتوحة، وأعاندها أحياناً كي لا ترمش وتستريح، حتى أني فتحتها دون أن ترمش لدقائق معدودة، لقد عاتبتني هي بدورها بالاحمرار والجفاف والدموع..

أنا لا أصلح لجسدي هذا المتهالك، أحتاج أن أنزعني جانباً وأرتدي جسداً يليق بدوافعي ورغباتي، جسداً يملك عضلات مفتولة باليدين، محشو الصدر، ضامر الخصر، عريض الرقبة، بنظرة حادة، وأسنان مصطفة وابتسامة مهيبة، جسداً يجعل كلبة السيدة بهية تفر مني هاربة وتنسى ما فعلته بصغيريها، عكس الواقع الذي يجعلها تتعلق بي تريد الانتقام!

لم أعتد على وجود أحد معي، حتى أمي علمتني أن أعتمد على نفسي، في الواقع هي تخلت عن مسؤوليتها مبكراً

عند سن العاشرة تماماً، كان لدي منبه صغير أربط عقاربه من الخلف لأضبط الساعة على موعد المدرسة صباحاً، لقد كان المنبه الصغير يفلت حجره أحياناً، وفي اليوم الذي يفلت حجره يفوتني باص المدرسة فأصحو مفزوعاً لأجد أمي تتكئ على الأريكة وتشرب قهوتها، لكنها تركتني لأجرب الحياة منذ سن مبكرة.

كنت أعالج نفسي ليلا بينا هي منشغلة بالبكاء على ذكرى والدي، وأعد الطعام لنفسي بينما هي تغط بنوم عميق بعد ليلة بكاء حافلة، أو سهرة على أحد الأفلام المصرية القديمة، تعشق القديم منها الأبيض والأسود، تقول إن الحب فيها بأنقى صوره، والحزن بها حقيقي، والقصة تجعلها تعيش البطولة..

كانت لأمي طقوسها الخاصة بكل ليلة، تفعل كل شيء إلا أن تدخل إلى غرفتي لتتحقق من أنني فوق سريري ولست نائماً على الرصيف لقد حصل هذا بالفعل، لقد خرجت أمام باب منزلنا لأحادث سام، نجلس

على الرصيف ساعات طويلة فلقد كانت أمي تمنع أن يدخل أصدقائي للمنزل، ولم يكن لي صديق غير سام..

عندما غادر هو وأردت الدخول للمنزل وجدت أن الباب قد أغلقته الريح، ظللت أطرق الباب والجرس طوال ليلي لكن أمي كانت نائمة، فلقد اضطررت أن أنام بحديقة قريبة من منزلنا على أحد الكراسي الموجودة هناك

كان للحديقة سور حديدي قصير استطعت تسلقه والدخول، كان أرحم من أن أنام على الرصيف ويلتهمني كلب مسعور.

في الصباح لم يكن لأمي عذر مقنع سوى أنها كانت تظن أن صوت الجرس وطرق الباب هو بحلمها فقط ولم تحاول النهوض لتتحقق من هذا، كان نومها ثقيلاً جدّاً، ربما لهذا السبب حظيت برصيد نوم لعام كامل عندما قتلتها!

أشعر بجوع الآن لكن لا طاقة لي على النهوض، لقد اتصلت بالخادمة الأسيوية أطلب منها المجيء لتنظف البيت ولعلها تعد لي شيئاً آكله، لكنها لم تجبْ على اتصالاتي، لقد تذكرت أني طلبت منها عدم المجيء طوال فترة إجازتي، لكن لم أتوقع أن تأخذ الموضوع على محمل الجد!

كيف على محمل الجد يا جبران! فأنا دائماً جاد وحاد معها حتى أني لم أعطها بقشيشاً منذ عام مضى.

أغمضت عيني تعباً وتركت فمي مفتوحاً جوعاً، متشقق الشفاه يابس الريق.. أشتم رائحة حساء بالخضروات وعليه رشة من البهار العثماني،

رائحته تقترب مني وكأن الحلم يأتي لي بيا أتمنى وبها أشعر، لم كنت أريد أن يقترب أكثر لأتناوله لعلي أشبع في حلمي اود فتح عيني طالما أن الواقع لم يأتِ لي به..

- جبران

حضرت هذا الحساء لك، أعرف أنك جائع.

سمعت هذه الكلمات بهمس بجانبي، وظننت أن الحلم يأتي بالحساء والنساء أيضاً.

- جبران تسمعني؟

أسمعك أقولها لنفسي

أشعر بمرور أصابع من حجر ناعم كريم تتخلل شعري الأشعث المتعرق المتعب، تعيد شعري للوراء وكأنها تجعلني أبدو أجمل أو كأنها تثير شيئاً بداخلي لا أعرف مصدره لكنه يجعلني أتنهد بثقل.

بين حين وحين تُعاد همساتها بالنداء:

جبران

جبران

للمرة الأولى أستمع لاسمي بكل هذا الإنصات وبكل ما أوتيت من رجولة.

لكني لم ألبِّ النداء خشيت أن أفتح عيني ويتبخر كل شيء، هذه الأصابع لم تكتف بتخلل شعري بل تدلت كعناقيد عنب شهية على وجهي، عيني وأنفي وشفاهي ورسمت حول شفاهي دائرة ببطء وكأنها تلتف بمكر حولها.

وأنا ما بين رائحة الحساء وجوعي وما بين رائحة أصابعها وجوعي أيضاً، وبكلتا الحالتين أنا أقاوم، استدرت بكامل جسدي لاتجاه الصوت وأنا مغمض العينين ولففت يدي على خاصرتها وتوسدت حضنها، كانت لها أرجل ممتلئة ورغم هذا أشعر بركبتها أسفل رقبتي.. هذه الطرية لا أعرف من أي ثقب بقلبي تزورني أخاف أن أفتح عينيّ على واقع لا أريده، أشعر بها وهي تعشقني..

(إنها كمد يا سادة)

تلك الجنية التي سيطرت على كامل قواي في حلمي وفي الحقيقة أيضاً مسيطرة، لقد حاولت أن أبعدها بكل ما أوتيت من حيلة لكنها كانت في كل مرة تعود، عندما أنهار وأتعب، وأضحك وأبكي.. كانت هنا ومعي، التصاقها الهادئ جعلها تسقط بقلبي، وربا العزلة التي أعيشها وربا الجنون الذي يسكنني وربا الأرواح التي قتلتها، لا أعرف أي باب دخلت منه كمد ولكنه يكفيني، ذاك العوض الروحي المهيب الذي يجعلك تتمسك به وكأنه آخر ما تبقى لك، في وسط كل خساراتك وكل خرابك وكل الفوضى التي بداخلك، تجد ذاك المنفى الهادئ الذي تستريح به من شقاء نفسك وتزفر بهدوء لتنعم بالحياة، الحياة التي تجلدك في كل مرة تنوي أن تعيشها، تعطيك من دروسها ما يجعلك تفر منها وتتمنى الموت.. لكن كمد الحياة بصورتها الأبهى، كلوحة ألوان زيتية تخاف مساسها قبل أن تنشف، تحرص عليها لتنظر لها دون أن تشعر بوجودك، تلاصقك هي قبل أن تلاصقها، تعلمك أن الدفء هو قبلة وحضن وهمس، وأن الأنوثة ليست من طين..
لقد تناولت الحساء كاملاً من يديها، بكل رشفة كانت تنظر لي وتبتسم وأنظر لها وأنا أنوي التهامها مع الحساء

لقد تعافيت سريعاً وتعجبت من هذا، حتى أنني نهضت في يومي التالي وكأني لم أشتك من علة بجسدي، كنت نشطاً جداً وأنفي يعاود مهمته باستنشاق الهواء، سألتها لا أعرف هل السر بالحساء أم بأصابعك؟

تبسمت وقالت هي أعشاب أعدتها لك وجوم كبيرة العرافين والمداوين بقبيلتي، لقد طلبت منها بشكل عاجل أن تعدها لك.

وضعت يدي على معدتي متوجساً خيفة

ضحكت وقالت: لا تخف لن تكون إلا إنسياً نحن لن نحولك لحشرة عملاقة على سبيل المثال.

لقد كان يفخر بأنه أكثر صلابة من غيره، ودائماً
لديه القدرة على تجاوز كل شيء..
حتى وقع بالحب

معجزتي ستبدأ معك.. وربما مأساتي.

لقد انتهت إجازتي ولم أعد للعمل، لقد تركتها مفتوحة، كنهاية رواية لا تعرف إلى أين ستصل الأحداث، عندما عجز الراوي عن إيجاد نهاية تليق، وترك القارئ بدوامة التفكير، هو لا يجني شيئاً من هذا، لكنه استطاع إثارة القارئ وجنى الكثير من الشتائم.. لقد كان العمل مجرد مكان أذهب له مجبراً من أجل ألا أجد نفسي يوماً ما أقف على الرصيف وأتسول لقمة العشاء، أن أدفع الضرائب وأكون مواطناً صالحاً، أن أنام تحت سقف من الطوب لا سقف السماء، لم يكن لي استعداد أن أعيش محبوساً خلف قضبان السجن، أقضي نهاري معذباً وخادماً ومحكوماً، والليل ينذرني من صباح مليء بالشؤم تجهل مصيرك به، لهذا أنا أختار بعناية ضحاياي، ضحية لا أحد يسأل عنها ولا يفتش عن سبب موتها ولا يطالب الطبيب الشرعي بمعرفة سبب الوفاة، ضحية يركض بها للقبر ثم الصلاة ثم لأدراج ذاكرة النسيان، إن سجنت فلن توفر لي الزنزانة أي أرصدة نوم، ثم إن قتل أحدهم بهذا الإطار الضيق سيفضحني..

لقد تلقيت مؤخراً رسالة من المدير الجديد يخبرني بضرورة تقديم استقالتي حتى لا يضطر هو لفصلي ويترتب علي وعليه أمور أخرى، لقد كان يلتمس لي العذر، أقدر له هذا لكن أخبرته أني لا أهتم با سيكون وليفعل ما يحلو له..

لقد وصلت لمرحلة مخيفة من حياتي، أن أتنازل عن مصدر رزقي الوحيد والوظيفة التي حصلت عليها بواسطة سام وبمشقة، هذا أمر جلل،

فرجل مثلي لا أسرة يعولها ولا أحد ينتظر منه شيئاً، هو يعول نفسه بنفسه، كان وراء قراري هذا.. كمد..

لا مضى على وجود كمد أشهر معي، لقد عالجت روحي ومواجعي، الوقت معها لا أعرف كيف يمر سريعاً لقد أدمنت رائحة شعرها، وصار حضنها هو المكان الذي آوي إليه، حديثها الممتلئ بالعذوبة يحييني، غيابها لساعات يقتلني، لقد أصبحت أقوى وأجمل، حتى أني للمرة الأولى أتحسس وجهي وأشعر بوسامتي

هذه الجنية حولت حياتي بالكامل، أخبرتها بكل شيء إلا عن الرغبة التي تنتابني للقتل، للشهوة التي تجعلني أتعطش لرقبة ملساء، ونبض يرف بها ويستهويني تجاعيد بها، رائحة الأكسجين منبه خاص يوقظ الشيطان بداخلي، أنا على يقين أن كمد تعرف هذا أيضاً لكنها تنتظر مني أن أتحدث لها عن تفاصيل كل ضحية أرسلها للسماء، من لحظة اختياري للحظة احتفالي..

حتى جاء ذاك المساء الذي عدت به للمنزل وقد أزهقت روحاً بالخارج، روحا كانت تنوي أن تأوي لفراشها لتنام ساعات وتعاود الصحو، ولكني سرعت بنومها الأبدي.. لم يكن شخصاً غريباً، لقد كان عامل النظافة الذي يمر يوميّاً ليكنس الحي، بمكنسة طويلة وعمود عريض، يلبس قفازاً شتويا ليتقي شر أعواد العمود الخشبية، ينظف عتبات الأبواب ويجمع قاذوراتنا ويخلصنا منها، يتكئ في الظهيرة على إحدى عتبات أبوابنا يلتقط أنفاسه ويقلب صوراً لأبنائه وربا يخرج بقايا خبز من جيبه ليأكله، كان يومه بسيطاً جداً غير معقد بالعلاقات، يلقي التحية على الجميع وربما

يعرفهم، لقد ألقى التحية على الشخص الغلط في تلك الليلة، أنا الذي أسمع للشكوى حينها يأمرني شيطاني بهذا، لقد شكا لي ليلة الأمس أن له ابنة بالهند ويريد تجهيزها للزواج لكن لا يملك المال الكافي ليرسله لها، لقد كان مكتئباً وحزيناً، هو يرمي بشكواه لمغزىً آخر، أن أخرج ورقة ملونة وأدسها بيده لعلها تفك قليلاً من حاجته، لكنه وجدني متصلباً تماماً أستمع له ولم يرف لي جفن ولم تتفاعل معه أي من تجاعيد وجهي الكثيرة، قال بعدها ممازحاً إني أتمنى الموت، قالها وهو يبتسم، فكيف ليائس أن يتمنى الموت وهو يبتسم؟!

سألته عن السبب قال: لأنها الطريقة الوحيدة التي ستوفر لابنته المال، لأن الشركة التي استقدمته لهذه البلاد ستدفع تعويضاً مجزياً لأهله، يمكنهم تزويج ابنتهم وشراء مكيف للتبريد أيضاً.

لقد كانت فرصة ثمينة لي، كان يتحدث لي بكل شكواه وحزنه وألمه وعجزه وأنا أنظر لعنقه سمراء محترقة من الشمس متعرقة لكنها طرية جاهزة بكل بؤسها، أخذت بيده وأخبرته أن الحديث هنا في منتصف الشارع غير لائق ودخلنا الحديقة القريبة من المنزل، افترشنا الأرض العشبية جلست متربعاً وأنا الذي يتعبني ثني أقدامي بهذه الطريقة، لكن كنت أود التودد له وإعطاءه الأمان والراحة أكثر، أكملنا الحديث.. جعلته يتكلم عن كل شيء، حتى عن آلهته المقدسة التي كان لها الفضل بتزويجه من حبيبته وأيضاً بشفاء والدته وإنجاب أبنائه هو يتحدث عن البقرة، فقلت له: لمَ لم تفكر أن تتواصل مع بقرتكم تلك لتزويج ابنتك ؟ أخبرني أنه أثقل عليها بطلباته ورغم هذا لا تزال ابنته تصلي لها كل يوم لعلها تستجيب لها، لقد كانوا من عباد البقر، تحدث لي عن مأساة الجوع

والمرض بمدينتهم، عن البطالة التي تدمرهم، عن الفرصة التي حظي بها وكان كل من حوله يغبطه ويهنئه عليها، كونه وجد عملا خارج حدود بلاده براتب مجزٍ، لقد تبسم وقال لي إنهم لا يعرفون ماذا يعني أن تكون مغترباً وبدون أهل وأصدقاء، لقد كان متعباً بحديثه، عيناه ترجفان وصوته يغص بنوبة بكاء صامتة، طلبت منه أن يتمدد على ظهره ويستريح وينظر للسماء كنوع من الاسترخاء وأن هذا سوف يساعده كثيراً ليتخلص من طاقته السلبية ولكن لم يكن يعرف أني بهذه الطريقة أنا أجهزه لرحلته الأبدية للسماء..

طلبت منه أن يغمض عينيه ويتذكر آلهتهم المقدسة ويتخيل لو كانت الآن أمامه وتضع قدمها على رأسه (كما هي طقوسهم معها والتي وضحها لي قبل دقائق) وأن عليه ألا يتحرك مها شعر بضغط وثقل، فهذه روح الألهة قد حضرت إليه.. لقد صدقني بسرعة، كوني صاحب شهادة ويناديني دائماً بالدكتور، لا أعرف لمَ اختار دكتور تحديداً..

بمجرد أن تمدد وأخذ يتنفس ببطء كما أخبرته، بدأت أتحسس رقبته مكان النبض تحديداً وبدأت أضغط عليه بنشوة تجعلني أحبس أنفاسي وأرفع رأسي وأعض شفتي السفلية بلذة، انقضضت عليه كفريسة مهزومة ضعيفة تحت أنياب وحش مفترس..

أطبقت يدي على رقبته وقمت بخنقه، لقد حاول بجسده النحيل أن ينقذ نفسه ويخلصها بعد ما شعر أن أنفاسه بدأت تختنق، لقد صبر وجاهد في بداية الأمر، كون الذي يحدث له هو من الآلهة التي اقتربت منه وبدأت تضغط، لكنه استدرك لحظة فوات الأوان وأن الأجل قد

حان وهذا لن يخلصه ولن يشفع له بالتأكيد، لا فائدة كان الوحش الذي بداخلي أقوى بكثير من أن ينازله عامل فقير بعقلية تعبد بقرة..

لقد لفظ أنفاسه الأخيرة وجحظت عيناه وأزبد فمه، كان منظره مقرفاً ربما هكذا يموت عباد البقر.. سحبته وأجلسته عند جذع شجرة وأعدت قبعته على رأسه ووضعت مكنسته بجانبه، كل من يراه الآن سيظن أنه يستريح ويأخذ غفوة..

لن يتفقده أحد قبل الصباح وربا المساء أيضاً، ثم لن يراه أحد عابر من جانب سور الحديقة، هو يحتاج أن يتوغل بها ليراه.

غفوته هذه هي الأبدية، تنفست بعمق وكأني أملأ رئتي من رائحة أنفاسه الأخيرة لأحتفظ بها كرصيد نوم إضافي وراحة للشيطان المارد الذي يسكنني..

عدت للمنزل وأنا أدندن أغنية هندية لا أعرف لم هي بلساني الآن ربما هذا العامل جعل شيئاً منه عالقاً بي، لا يهم..

دخلت البيت، توجهت مسرعاً لغرفتي، خطواتي كانت واسعة جدا فكل السلم كان أربع خطوات فقط وبكل خطوة أنادي حبيبتي كمد، وأقول بنفسي : أريدها اليوم معي وهذه الليلة تحديداً..

ها هي تعد كوباً من الأعشاب الخاصة لها وتقول: أنا هنا.. دخلت للمطبخ وإذا بها واقفة، أتأمل قوامها وخصرها وردفيها، كل شيء كان يجرني لها حضنتها من الخلف وشممت رائحة شعرها وقلت لها: أنا سعيد جداً هذه الليلة، لن يفوتني لحظة منها دون الاحتفال بها، دعي عنك مشروبك

هذا وهاتي الشموع وعلبة عصير العنب اللاذع وأشعلي الشموع، افردي شعرك الغجري وتمايلي بجنون وغني لي، أرفعي ذراعيك بغنج وتراقصي على أنغام الموسيقى التي أحب.. أشعلي لي سجائري ورتبي سعاداتي وضعي نفسك في المقدمة والمنتصف والخاتمة وعن يميني وعن شمالي.. كمد يا كل اتجاهاتي وفصولي، يا بردي وخريفي والربيع، يا عطراً باريسياً لم يصنع بعد.

تبسمت وقالت:

جبران يا عشقي الأبدي ويا حبيبي

يا أنسي بعالم الظلال

والحقيقة الوحيدة التي صدقتها

يا كياناً بكياني

يا زمناً يسبق أزماني

ما الذي أسعدك يا سعدي؟

أقول في نفسي: هل أخبرها؟

هل أصدقها القول أم أنها قادرة على اشتمام رائحة الرقاب من يدي! لا بأس بهذا فهي جنية وأظن أن في عالمهم الكثير من أشباهي..

لا بد أنهم يقتلون وينحرون ويخنقون أيضاً، لا بد أن في عالمهم المجنون والمؤذي والسكير والمتطفل والمنبوذ، أنا لست شاذّاً عما تعرفه هي، لكني ارتكبت كل شيء بتوجيه مسير، أتحول معه لرجل بقوة تفوق قدراتي وقلب لا يخاف..

لقد ترددت بقول هذا، فهي رقيقة وربا لا تطيق ما سأخبرها به.. ثم هذه النشوة تبقى معى لساعات قليلة ثم تختفي وأعود جبران الإنسان الذي يحتمي بظله ويخاف الليل ويلتصق بالجدران..

لقد جهزت كل شيء لاحتفال كهذا.. لكن كمد اختفت فجأة كعادتها.. هذه العادة التي تقتلني في كل مرة تغيب فيها.

لا تطيل كمد البقاء.. هي تعود كلا تفقدها والدها غيلان، حينها يسأل عنها خادمتها مطيعة، تلك الخادمة التي ولاها غيلان مهمة خدمة كمد ومتابعتها، وكلها تفقدها جاءت لتخبر كمد بضرورة العودة لأرض العوسج، فتخرج كمد مسرعة ودون أن تخبرني بهذا.

لقد احتفلت وحدي وشربت الكثير من السجائر، لقد خلقت فوضاي التي تجعلني سعيداً.. لقد نمت سريعاً، نمت عميقاً، نمت وكأني أنام للمرة الأولى.. لكن صوت الباب والضجيج أزعجاني لأنهض متكاسلاً أجر خطواتي وبقايا حلمي الأبيض الممتد.. وبصوت مليء بالنعاس سألت: من الطارق؟

- شرطة منطقة الموحد هل أنت جبران؟

- نعم نعم

نود بعض الإجابات منك إذا سمحت الآن.

- وما الذي يريده رجل الشرطة مني في مثل هذا التوقيت من الصباح؟!

لقد وصل قبل أن يصل بائع الجرائد وبائع الحليب

- هل تعرف عامل النظافة الهندي المدعو (أباها)؟

للتو أعرف أن اسمه الحقيقي أباها فلم أنادِه من قبل وكل ما بيننا التحايا من بعيد، رغم أنه يعرف حتى رقم لوحة سيارتي..

- نعم لقد لمحته عدة مرات ينظف هذا الشارع.

ومتى آخر مرة قابلته؟

يقولها رجل الشرطة وهو يتكئ بيده على دفتر صغير يكتب فيه ما أقوله

- أنا لا أعرفه حتى أقابله، لقد قلت لك إني لمحته فقط!

ثم لمَ تسألني أنا تحديداً عنه؟!

نحن نسأل كل أهالي هذا الحي، فلقد وجد العامل أباها متوفّيً في حديقة الموحد العامة ومشتبه بجريمة ربما تكون قد حصلت.

لا أعرف لمَ ابتلعت ريقي رغم أن لا لعاب بفمي فلقد جف تماماً منذ أن رأيت رجل الشرطة هذا.

- هل تقصد أنه مات؟!

- أقول لك متوفّىً فتسألني مات!

هل تتعاطى شيئاً يا رجل؟ هل أنت طبيعي؟!

- طبيعي يا سيدي.. طبيعي أقولها وأنا أحاول أن أستقيم وألف قميصي جيداً على صدري لأني تركته مفتوحاً ورحت أفتح الباب مفزوعاً.

هل يسكن معك أحد هنا؟

- كمد

عفواً وحدي يا سيدي أسكن هنا.

تطفلت عيناه ل وهو واقف مكانه وكأنه يتفحص هل هناك بالفعل أحد!

- إذاً لو عرفت شيئاً أو أي معلومات تخدم القضية فعليك إبلاغنا على الفور..

- أصبحت قضية إذاً!

لقد رحل وأنا أنظر له، ذهب وهو ينظر لي تارة ثم لطريقه تارة أخرى، يقال إن رجال الشرطة لديهم حدس خاص وكأنهم مرنوا أنوفهم على اشتام الجرائم..

عزيزي أباها

أنا لست مجرماً، أنا الدكتور جبران كها كنت تناديني دائماً، ستجد البلدية شخصاً آخر غيرك ينظف الشارع الذي كنت تستميت لتجعله نظيفاً، وسوف يصل لأهلك جثمانك، المخنوق والمقتول غدراً ومعه مبلغ مالي كا خططت تماماً، ستجهز ابنتك منه لعرسها وسينام أولادك وهم منعمون بهواء مكيف جيد.. ربما ستكلفهم عملية دفنك والطقوس بعض الشيء، لهذا سوف يحرصون على إحراقك وربا دفع أقل التكاليف لعملية دفنك، لن يأتوا بالبقرة لتبارك قبرك فهذا سيكلفهم الكثير، وهم بحاجة لمبلغ التعويض بالكامل..

يؤسفني أنك لن تحضر زفاف ابنتك ولكن هذه كانت رغبتك، وربا ستظن أخيراً أن الإله المقدس قد استجاب لدعواتها وسهل عملية زواجها ولن تعرف كم كلف والدها هذا..

ثم شكراً لك يا أباها مرة أخرى، أقولها لك بامتنان وفير عكس أهلك وأسرتك، أنا ممتن لك ولهذا الرصيد الذي منحتني إياه شهرين على الأقل من النوم دون أرق، ودون أن آخذ من تعويضك المالي شيئاً.

جهزت قهوتي السوداء واتكأت واقفاً أستند على النافذة التي أتلصص منها على الشارع والرصيف والطريق، وكل ما يدور فيها لا يهمني لكن هو وقت يمضى لحين الانتهاء من قهوتي، لم أعتد على قراءة الصحف الصباحية ولا تتبع الى أخبار العالمية، فالكثير من الزخم لا يهمني بها أيضاً..

رأيت الكثير من أباها يقفون عند الحديقة، لقد كان دائماً وحيداً بصحبة مكنسته، يجرها خلفه ببؤس شديد، اليوم اجتمع الكثير من أصحاب جلدته، البعض واقفٌ مكتوف الأيدي والآخر جالس على ركبتيه والبعض مستمع والآخر يتكلم ويشير بحماس للحديقة، يبدو أنه هو من عثر عليه أولاً..

الكثير اجتمعوا بعد موتك ولا أحد بحياتك حولك.. أباها كان مثلاً لهذا.. أبتسم وأهمس لنفسي: حمداً الله لا أحد حولي بحياتي ولا حتى بعد وفاتي، لا أحد سيتكلف عناء الاجتماع هذا ليستمع لقصة موتي..

البيت موحش دون كمد أشعر حتى الجدران تطبق على أنفاسي، أكره هذه الخلوة فهي تعيد لي كل الوجوه التي أسرعت برحيلها للسماء، لا تزال رائحة (أباها) عالقة بيدي أشعر بقشعريرة كلها شممتها، كلا فتحت نافذة الغرفة لأرى مكنسة وعلبة قمامة ومجرفة صغيرة، تهيأ لي خروج (أباها) منها، وكأنها جنوده الذين بقوا خلفه ليأخذوا بثأره.

أحتاج لكمد وأخاف أن أتحول لأحمق مثل زينة ويحين الوقت الذي أكتب لها فيه كما كتبت هي لكنعان، لقد عبرت عن اشتياقها بطريقة مميتة حتى كدت أشتم رائحة دموعها من بين الأسطر، وأحياناً قهرها وأحياناً أخرى أشك بطريقة موتها، هل قتلها كنعان أم الحب؟

أخاف أن يقتلني الحب أنا أيضاً

- أين أنتِ يا كمد؟!

من زينة إلى كنعان

حبيبي كنعان

كل مرة أذكرك فيها يكون الغياب كسهم يمزق أضلعي المشتاقة لك، وفي كل مرة أرفع أكفي للسماء أبكيك من كثرة الاشتياق

ما عاد لي حيلة ببعدك إلا الصبر، الصبر الذي بدأ يقتات على روحي..

لا أعرف أين أنت الآن ولكن أعرف أنك غاضب مني وتعاقبني بهذا الغياب

أرجوك عد لي وأعدك أني لن أفصح لك عن حبي مرة أخرى...

مع فجر اليوم التاسع لغياب كمد.. غفوت على وجع الشوق وأشرقت شمس صباحي من جبينها، لقد وجدتها أمامي مباشرة، حسبته حلا جاءت لي به المهدئات التي رجعت لالتهامها مؤخراً يوجد لدي رصيد نوم كافٍ لكنْ بداخلي جيش يتقاتل على من ينحرني أولا، أسمع صراخهم ولجيجهم برأسي، وحدها المهدئات من تجعلهم يخرسون، بوجود كمد أنا لا أحتاج لأي مسكن ولا مهدئ، لقد عادت وتجر شوقاً عظيماً، لقد مسكت وجهها من جانبيه وجعلت أطراف أصابعي تلامس أذنيها، اقتربت منها وبعين تغلي بدمعها من الاشتياق سألتها:

لمَ كل هذا الغياب يا حبيبتي؟

هل تنوين قتلي وتعذيبي؟

قاطعتني قائلة :..

سوف أغادر بعد لحظات لن أستطيع الجلوس معك كعادتنا.. أشتاق لك لكن أحدهم وشى لوالدي بأني أزور رجلاً قاتلاً متسلسلاً، يلوي الأعناق ويرقص بعد وفاتهم، وينام طويلا، يسكنه شيطان مارد، سيتحول مع الوقت لقاتل لا يختار ضحاياه، سيقتل كل من يقف أمامه ليشبع رغباته ويرضي نزواته ويصفق لنفسه بعد كل مرة..

لقد أخبرت والدي أنك لم تكن قاتلاً بإرادتك وأن هناك من يختار لك ضحاياك، وأنك تشتاق لأمك ولصديقك، وتفتقد مديرك، وتحب كبار السن وتزورهم، لقد أخبرت والدي أنك رجل تعاني من الأرق، وأني أحبك جدّاً..

ابتعدت عنها بضع خطوات وتراجعت للوراء، وسألتها : ما الذي أخبرك به والدك تحديداً!

أنا لست بقاتل يا كمد

لم أقتل أحداً!

أنا فقط أجهزهم وأعجل برحلتهم التي توقفت عند نبضهم الأخير..

- لقد عدت لك لأساعدك.. أنا أحاول أن أفعل كل ما أستطيع فعله لك قبل أن يقرر والدي منعي من زيارتك أو نفيك..

عليك أن تخبرني بكل ما تشعر به وما الذي يدفعك لهذا، ما الذي يعتريك، ما النشوة التي تدب بعروقك، ما القوة التي يختزلها جسدك النحيل وتظهر بصورة مارد حقيقي في لحظتها!

وإلا فلن أستطيع زيارتك مرة أخرى

- هل تهددينني بغيابك يا كمد؟!

أنا لا أهددك أنا أحاول أن أخبرك ما الذي سيفعله والدي حينها، منتشية با تفعله، لا أفوت لحظة احتفالك كل مرة، لكن والدي ان يختلف عني تماماً..

سأغادر الآن وفكر جيداً

سأعود لك حينما تكون جاهزاً لهذا..

وغادرت كمد، أخذت كل شيء إلا عطرها، الذي جعلني بدوامة ما بين أن أخبرها أو أستمر بصمتي هذا، لقد كنت أتخلص من كل شخص يصادفني بمجرد أنه سيكتشف حقيقتي!

الحقيقة التي أخاف أن أذكرها وأحكيها لنفسي، فكيف لي أن أفصح بها لعشيرة من الجان، ربما سينتقم مني قرين كل من قتلتهم، وربا أحرق وأنا في مكاني هنا، لا أخاف غضبهم بقدر ما أخاف غياب كمد الأبدي.

بداية الحقيقة اعتراف..

لا أخفي عليك سرّاً.. أنت الجانب الألطف بحياتي، الجانب المضاء منها بزحمة الظلمات ووعورة التفاصيل، الطريق الممهد الذي أمشي فيه ولا أخاف التعثر، النافذة التي تطل على مساحات خضراء، اللوحة الملونة بجدران أيامي، الوقت الذي أمضيه معك أنا أنسى من أكون، أنسى أنني كائن غريب الأطوار، يتغذى على حياة الغير، يرسلهم للسماء لينعم بنوم هادئ، يتناول الكثير من المهدئات لينام، كائن لا بحبه أحد ولا ينتمي لأحد..

لقد سمعت مراراً بحكاية (مقطوع من شجرة) لكن لم أصدقها حتى وجدتني دون جذع ولا غصن ولا أوراق، لقد كنتِ أنتِ الثمرة التي أستشعر لذتها ومذاقها رغم مرارة أيامي..

سوف أكون صالحاً لولا تلك الرغبة التي تدفعني لقتل أحدهم، النشوة التي تعتريني بعدها، فرحة الانتصار التي تدوم طويلة، النوم الذي أحظى به.

الخطيئة كل الخطيئة أن أُحرم منك، هل تريدين مني أن أحارب لساعات بسيفي الورقي قبيلة جان؟!

أو ألوح لهم بيدي وأعلن الاستسلام؟!

هل يحق لإنسي مثلي أن يتزوجك! إذا كان مهرك هو الاعتراف.. فهاك الاعتراف..

هاك الاعتراف

كمد

كمد

وبات اسمها بلساني ما بين حقيقة واعتراف..

لقد أخبرتها بكل شيء، تحدثت معها وأنا أرتجف، شكوت لها حالي وضعفي، أخبرتها أن كل شيء يحصل دون قصد، لم أنوِ تعجيل موت من قتلتهم، لم أكرههم، أنا فقط كنت أحاول أن أساعدهم على الرحيل، وربما أحاول أن أجعل من حولهم أكثر سعادة..

أنا في كل مرة أفعلها أحتفل، لست أنا من يرقص، هناك من يتحكم بي وكأني لعبة عرائس معلقة بخيوط، بداخل صندوق بائس، ترقص وقت العرض ثم تظل حبيسة ذاك الصندوق.

أنا متعب يا كمد، ولا أشبه أحداً

هل هناك من هم مثلي؟!

يقتلون أمهاتهم وأصدقاءهم وقطط الحي وكل من صادفهم!

أنا أعاني ما بين أرق يقتص من روحي وعمري، وما بين رغبة بالقتل، دون دماء، دون ضجيج.. وكأن شيطاني أخرس ومكتئب..

أنا لا أطلب منك مساعدة ولكن كان اعترافي هو شرط بقائك، أليس كذلك؟!

تنظر لي كمد بعينيها نظرة ممتلئة بالدم، تريد إغراقي بها وتقول بحنجرة مختنقة:

لا بد من إيجاد حل لهذا، ليس لأنك لا تروق لي ولكن لتطمئن أنت وتعيش كشخص طبيعي يمارس حياته كما يحلو له.

أنا لست طبيعياً، هل من إنسي طبيعي يعشق جنية؟!

- ولا جنية تعشق إنسيا يا جبران

إذا لنعِش اختلافنا هذا، لا غياب يأخذك مني يا كمد

- ولا قتل يبعدني عنك، لا تعدْ للقتل، قلت لك أخاف قرار والدي.

أنا لست بقاتل أنا فقط أساعدهم على الرحيل، أقولها وأنا أدير وجهي عنها لأني أعرف كم هي خارقة بقراءة تعابير وجهي.

بالمناسبة إن العرافة (وجوم) تعرفك جيداً منذ الصغر ولقد أخبرتني بكل شيء عنك، وهي قادرة على مساعدتك، فما تعانيه لم يبدأ منك بل من والدك..

وجوم؟

من تكون؟

وكيف تعرف والدي!

الزائر الذي يأتيك دون معرفة سابقة

هو يعرفك جيداً...

وجوم هي إذا المرأة العجوز التي زارت والدتي مساء يـ أعرفه، لقد عرفت هذا من وصف كمد لها، وكان لم تمر عليها كل تلك السنوات وكأن لم يزر وجهها تجاعيد إضافية ، عمر متوقف منذ عمر هي العجوز التي مسحت على رأسي وتحمل شنطة قماشية مستطيلة طويلة، أتذكر جيدا تعابير وجهها الهادئة بمقابل تعابير وجه أمي الغاضبة، لن أنسى تلك الزيارة التي جعلتني حبيس غرفتي لأيام، لسبب أجهله وأجهل أيضاً بكاء أمي طوال ليلتها تلك، لقد بدأت مخاوف أمي تكبر بعد زيارتها كل شيء بدأ يتغير حتى مشاعر أمي تجاهي، لم أنم بحضنها في مرضي لم تحضني بقوة ولم تسمح لي بهذا كما كانت تفعل، لم تنم إلا وهي مؤصدة باب غرفتها بالمفتاح، أتذكر تلك الليالي التي كنت أخافها كمثل أي طفل بعمري، يهرع لغرفة والدته لينام بجوارها ويهدأ لم تكن أمي تترك بابها مفتوحاً وحينها أطلب منها النوم بجانبها كانت تخيرني أنني كبرت على هذا، ثم تأمرني بالذهاب لغرفتي وتوصد بابها من خلفي شعرت أنني كبرت بالفعل بعد زيارة تلك العجوز، سمعت أمي تخبر جارتنا البدينة عن مخاوفها منذ زيارة هذه العجوز لنا، وهذا ما جعلني أجلس على عتبة بابنا كل يوم أنتظرها تعبر من الشارع لأطلب منها أن تأتي معي لتخبر أمي أن تكف عن إغلاق باب غرفتها وأن تعاملني دون خوف أو أقله أن أعرف منها ماذا أرادت من والدتي وماذا أخبرتها، وأعدها الا أفشى سراً وإن كنت أنا السر بذاته..

لم تخبرني كمد كل الحقيقة أشعر أني معلق بسقف أملس وسوف أسقط بأي لحظة، هذا التأرجح لا يعجبني، لقد توسلت كمد أن تأخذني لها لأعرف منها حقيقة كنت أود معرفتها منذ زمن غير بعيد... لقد فات الأوان أن أطلب منها أن تأتي لمنزلنا لتخبر أمي أن تفتح باب غرفتها، لأني

أنا من يغلق باب غرفة أمي الآن.. السؤال الذي أسأله إياها.. ماذا تريد مني ؟ ما الذي تعرفه عن والدي ؟ لقد أبعدت حبيبتي الأولى، وتنوي أن تبعد الثانية ! لقد أقنعت كمد بصعوبة وأنتظر تلك الزيارة الآن. لقد مشينا طويلاً، ربما مسافة يومين وربما أكثر، لقد ذهبت في سيارة أحدهم جاء مع كمد، تقول لي كمد إنني لا أستطيع أن أتنقل مثلهم لهذا وجب عليها أن تقلني بمثل ما أنا اعتدت، لقد حاولت معها أن أذهب بسيارتي لكنها رفضت تماماً وأخبرتني أن المنطقة محمية ولا يسمح بدخول الأغراب، ثم إن الرحلة طويلة وشاقة لا أستطيع قطعها بسيارتي... لقد كنت منصتاً لكل التعليمات وكان هذا إجبارياً، لقد كان بصحبتنا رجلان لهما رائحة نتنة، بصدور منتفخة ومكشوفي الأذرع أحدهما كان أصلع الرأس والآخر له جديلة نحيلة يربطها من أعلى رأسه عيونهما متكحلة ولهما شفاه غليظة لم أستطع تمييز كيف كانت أعناقهما لأن صدورهما ملتصقة بالذقن.

لقد أخبرتني كمد أن أي خطأ سيكلفني حياتي، ضحكت بالفعل ضحكت أي حياة أحرص عليها! وأنا مع مجموعة من الجان مكبلاً لعرافتهم التي استمت من أجل اللقاء بها ! يقودونني الحياة بالنسبة لي هي مغامرة وليست تضحية، لم أكن يوماً بدور الضحية أو لم أضح بشيء من عمري من أجل القيام بأمر ما، أمر أريده لقد كنت دائماً أختار المغامرة وأخوضها دون التخطيط لها، كما هي وكما ساقتها لي الأحداث. بقيت كمد طوال الطريق صامتة على غير عادتها وأنا أختلس النظر من خلف النوافذ المغطاة بقماش أسود كي لا أعرف طريقي لجهنم.. وصلنا لطريق متعرج غير مستو عرفت هذا من الاهتزاز الذي حصل لي ولكمد أما الاثنان الآخران فلم يؤثر بهما شيء كانا مثبتين بأوزانهما على المقاعد حتى

صدورهما الكبيرة لم تهتز.. أشعر أن الغبار بفمي لقد كان هذا الطريق غير معبد وعلى ما يبدو للمرة الأولى تسلكه سيارة.. ثم توقف الاهتزاز وشعرت وكأني محلق، عجلات السيارة لا اسمع لها صوتاً على طريق يلامسها، كانت تلامس الهواء فقط، ذاك الشعور الذي يأتيك وأنت تحلق في السماء بطائرة صغيرة تسمع صوت محركاتها لكن تشعر أنك طائر بجسدك وكأن المحركات علقت على كتفيك.

مسكت يد كمد وقلت لها

- يبدو أننا اقتربنا

ربتت على كف يدي وأومأت برأسها تعني نعم. دائماً أنا أطمئن لكمد ،وأصدقها، لكن هذه المرة لا، هناك شيء يخبرني أنها لم تصدق ربما الرحلة بدأت للتو وربما ستظل تحلق بهذا الصندوق طويلاً ولياليها

أسندت رأسي للوراء وتعوذت من وعثاء السفر وكآبة المنظر، لا أعرف أي مصير يواجهني وأنا أشعر أني محلق بسيارة ركبتها بنفسي، كيف تحلق إذا اعمال العالية ! سمعت صوت منكر ونكير يناديان علي ويضربان وجهي لأستيقظ، ربما سقط سن مني من جراء ما فعلا ولكني استيقظت مرعوباً، لقد وصلنا وفتحت عيني على منظر رؤوسهم السوداء المدورة فوق وجهي مباشرة، لقد كان أهون على أن يكونا منكر ونكير ولا تلك الوجوه ! لم أر كمد بجانبي لقد تلفت كثيراً وناديت أول مرة لولا صراخهم بصوتهم الأجش أنه يمنع الصوت هنا وضعوني عند باب غرفة وذهبوا غرفة جدرانها من طين تبدو وكأنني رجعت لعصور قديمة جداً لا أعرف أي عصر هو ولكن يستحيل أن يكون بعصرنا الحالي، كيف لي أن أصدق

هذا وأنا أرى جدران طين وأواني فخار وسقفاً مصنوعاً من سعف نخل وبساطاً بحياكة يدوية، للمكان رائحة احتراق لا أستطيع تمييزها، وأنا أتأمل السقف تارة والجدران تارة والأرض تارة أخرى وجدتها ظهرت أمامي مباشرة، مشهد أرعبني بعض الشيء كيف لها أن تظهر بدون أن أشعر بهذا وأنا الذي كنت أحسب أني أصبحت أعرفهم جيداً من كمد وما تفعله معي.

لقد كبرت يا جبران

تقولها لي السيدة العجوز وجوم

نظرت بوجهها وقلت :

- كيف للسنوات أن تغيرنا دون أن تمسك بشيء وكأنها تعبر من جانبك لا من خلالك !

- كيف حالك الآن ؟

أظن أنك أعرف بحالي مني

- هل تفتقد أمك ؟

ليس هذا محلًّا لنقاش مشاعري

تبسمت وجلست على الأرض متربعة كجلسة شعبية يبدو أنها اعتادت عليها.

وأشارت لمكان بجانبها وقالت :

- هنا

اجلس هنا

لقد جلست متقرفصاً حيث إني لم أعتد أن أجلس مثلها. ليس لديك من الوقت كثير معي، لولا كمد لما وافقت على مقابلتك لكن ابنة غيلان لها شأن عظيم لدي

لا أريد من وقتك شيئاً أريد جواباً فقط لسؤالي ما الذي تعرفينه عني ولا أعرفه أنا ؟ اتكأت إلى مسند من القماش بجانبها ونظرت للسقف وكأنها تحاول أن تجلب ذكريات مضى عليها قرابة الثلاثين عاماً

تنحنحت وأعادت نبرة صوتها وقالت : من الشغالة منذ ثلاثين عاماً وثلاثة أشهر وستة أيام طرقت باب شقتكم الواقعة بحي الغصن (هي تقصد شقتنا القديمة وقبل رحيلنا لحي الموحد) بشارع رقم ٩٩ الساعة الخامسة مساء قبيل الغروب.. جئت ومعي هذا الكيس القماشي وبداخله هبة ورسالة وتحذير لوالدتك، فتحت أنت لي الباب

- ومسحتِ على رأسي وتبسمتِ أذكر هذا جيداً، أعطيني ما لا أعرفه

يبدو أنك خلقت من عجل يا جبران بن يافا، يافا إنه والدي وهو اسمه الحقيقي ولكن غيره قبل مولدي بعام .

حيث أخبرتني والدتي أنه اختار أن يسمي نفسه يافع بدل يافا... لكن هذه العرافة تعرف هذه الحقيقة أيضاً.. أومأت لها برأسي أي أكملي.. لقد كانت أمك هادئة ورحبت بي ولكنها لم تكف عن السؤال بمن تكونين، كنت أعرف أن لا أحد يطرق بابكم سوى جارتكم البدينة زاهية، ثم إن أمك بلا صحبة ولا معرفة وكان هذا بسبب طبيعة والدك الذي جعلها تعيش هذه العزلة معه منذ أن أصابته اللعنة.. بعد عودته من رحلة برلين التي قضاها بحكم عمله لمدة أسبوعين كاملين... لعنة !

وأي رحلة هذه!

- أنت لا تطيق صبراً يا جبران فكيف أحكي لك ما سأحكيه؟!

لا تقاطعني فأنا أكره أن يبتر أحدهم حديثي بسؤال أو ردة فعل أو حتى إيماء!

- أعدك لن أفعلها أكملي!

كنت أقولها لأعرف ما الذي قالته لأمي، ما الذي جعل أمي تتغير فجأة تجاهي منذ تلك اللحظة، ما الذي جعلها تخافني وتخاف علي ! - لنبدأ برحلة برلين حيث عاد والدك منها بعام ١٩٦٩م حيث كانت نقطة التحول بحياته، بدأها بألم يشكو منه وصداع وأرق

وانتهت بمنزلي حيث أخبرني أنه سوف يتخلص من حياته التي ما عاد يسيطر فيها على ما يشعر به ويطلب حلا للأرق الذي يقتله تدريجياً ويتحكم به.

- وكيف عرف بك وما علاقتك بوالدي ؟!

أنت تتحدثين عني وليس عن والدي ! هذه مشكلتي أنا أنا وجوم ومن لا يعرفني؟!

العرافة المداوية التي يعرفها جميع المصابين بالسحر والمرض ونوبات الجنون أيضاً. أنا شمس الصحراء التي لا تغيب وعين الليل التي لا تنام، أنا الجوع والشبع والماء والعطش. من يعرفني لن يستغني عني حتى يجد مخرجه ! ومن جاءني بقدميه لن يستدل على طريق العودة، أنا أرسل من أشاء إلى أي مكان أشاء وأطلب من أشاء أن يبقى كما هو، وأعطي وأهب من أشاء الدواء أعرف ما لا تعرفه عن نفسك أنا قبل الأرض مولودة ولن أكبر وأهرم ولن تجدني إذا بحثت عني أنا من يجدك حينما أود هذا، لا مهرب مني إلا لنفسك، لقد قبلت بمقابلتك من أجل كمد ابنة غيلان كبير الجن والذي له مكانة كبيرة بنفوسنا. كانت وجوم تتكلم وكأنها المنقذ الوحيد ومخرج الخلاص، وكأنها تعرف كل ما فعلته وما أنوي ،فعله لقد وجدت بعينها صورة لسام ولأمي ولكل الضحايا الذين عجلت بهم للسماء، هذا ما جعلني اتجسس رقبتي خشية أن تسقط عقابها علي دفعة واحدة وتجعلني أختنق بلعابي وأموت..

جلست ساكتاً مبهوتاً دون حراك.. وكأني جئت إلى هنا طالباً موتي لا حياتي.. جلست أنتظر أي أمر ينزل لتحل علي لعنتها أو ينفذ. سحرها

بجسدي. قشعريرة دبت بأضلعي وأنا أنظر لها وهي تمضغ قطعة خشب طري مبلول بماء، لا أعرف ما هو ولكن أخذت شفتاها لون الصبغة، كنت أنظر لأسنانها المصطفة وهي تمضغ وتمتص ماء العود الطري وأنا أنتظر منها أن تكمل حديثها الذي وقع بقلبي وأحل رعباً وأتعشم آخر غصن أمان به بدأت أشعر أنها تمتص ضلعاً لي، ذاك وجع الانتظار الذي ما عدت أطيقه، لم أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة في بداية الأمر لكن عندما طال وقت انتظاري، سألتها أين هي كمد ؟.. لقد اعتبرت سؤالي هذا مقاطعة لما فعلته وربما لحديث بدأت به وهي من أوقفه لقد نبهتني قبل هذا ولكن الأمر يستحق أن أسألها عن كمد، ليس لأني أريد كمد ولكن لتتوقف عن مضغ ذاك الغصن الذي استل آخر ثواني صبري، وجعلني أشعر بالغثيان.

لا أعرف ماذا حل بي بعد سؤالي هذا، لقد كنت أنظر لعينها مباشرة ولقد توقف المضغ والعود بين شفتيها المصبوغتين وهي تحدق بي بلون عاجي.. وصحوت وأنا هنا بسريري نائماً فوق وسادتي ومتلحفاً بغطائي، لا أعرف كيف وصلت إلى هنا.. لكني نهضت مفزوعاً وعيناي محدقتان بالسقف، كيف الجسدي أن يطير بهذه الخفة دون أن أتحكم به، كيف لها أن تنقلني كيفما شاءت دون علم ولا دراية مني؟!

ناديت بصوت عال على كمد، لكن لا جواب ناديت على خادمتها وحاشيتها ومنكر ونكير والجدران وكل ما أوتيت من أسماء أعرفها ولا أعرفها، لكن لا أحد أول نوبة فزع أصاب بها أفقدتني الرغبة لمعرفة أنا بأي يوم والتوقيت الآن.. ما أعرفه أني بمنزل العرافة وجوم وأريد العودة

هناك لأعرف ما اللعنة التي حلت بوالدي وما حصل في رحلة برلين وما الذي أعطته لأمي!

لا يزال الكثير من الأسئلة برأسي تنتظر جواباً، أسئلة مثقلة بالإجابات التي ستجعلني شخصاً آخر، لا أعرفه ولكن ربما أكون راضياً عنه، ربما أجد مخرجاً من الأرق، ربما أنتزع تلك النشوة والشهوة للقتل التي تدفعني كل مرة لجمع رصيد من النوم، ربما أجد كمد كما أريدها وليس كما هي حقيقتها، مجرد جنية تنحدر من أسرة عريقة من الجان.. أريدها إنسية بسيطة لأحظى بها كاملة دون هذا النزاع الروحي الذي أعيشه الآن.

اللعنة لا بداية لها
هي تبدأ بك ولا تنتهي..

عند باب غرفة أمي.. أحمل سكيناً من مطبخها، لا أحد بالداخل لأقتله ثم إني لا أحب منظر الدماء، أنا هنا من أجل أن أكشف الحقيقة بنفسي بعد ما مللت من انتظار أي تواصل مع كمد لأتوصل للعرافة وجوم من جديد..

فتحت الباب الذي لا يزال يفضحني بصوت مزلاجه، لكن لا أحد أخاف أن أوقظه من نومه فتحت الباب وبخطوات ثابتة تعرف إلى أين تتجه باتجاه تلك الخزانة الخشبية الصغيرة التي دفنت مفتاحها مع أمي حيث ظل معلقاً على رقبتها لسنوات طويلة، لقد قلت لها أنا لا أكشف أسرارك، لكني أكذب الآن...

أنا بحاجة لأكشف السر لعلي أعرف شيئاً، لأبحث عن حل الحياة باهتة مثل حياتي ولا أطمع بكنز وأنا الفقير الذي يتعلق بمرتب شهري ضئيل ولا يدفع ضرائبه ويمضي شهراً على ضوء الشمعة بعد انطفاء الكهرباء عنه. اقتربت تجاه الخزانة وصدمت ركبتي بحافة السرير لأتذكر نظرة أمي قبل وفاتها وهي تلتفت لي لتطمئن أني ما أصبت بأذى، هذه المرة لا أحد التفت لي ولم أتفحص نفسي، لا أتوجع بقدر الألم الذي أعاني

منه. وضعت السكين ما بين زوايا الخشب للخزانة وحاولت جاهداً فتحها، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، لقد ضربتها بكلتا يدي وأنا أصرخ انفتحي أيتها اللعينة وأخبريني ما الذي بداخلك، رفعتها للأعلى ورميتها أرضاً، لقد تشطر الخشب لكنها لم تفتح، ففكرت بحرقها ليسهل علي فتحها بعد احتراق الخشب من أحد جوانبها، اتجهت مسرعاً وأحضرت جالون بنزين كنت أحتفظ به لأشعل حطباً بالشتاء ولأخيف به كلبة

جارتنا العجوز فلقد كانت تخاف النار، أحضرته وحاولت أن أصبه بحذر على جانب واحد من الخزانة، لكن يدي المرتجفة كانت تخونني في كل مرة وتدلق كمية غير مصرح بها عيناي مرهقتان وجسدي بالكامل يكاد أن يسقط ولا قوة لي على السيطرة، أخرجت قداحتي من جيبي وأشعلت طرفها بأصابع مرتجفة وأظافر متكسرة، سرعان ما التهم الخشب النيران، حاولت أن أطفئها ولكن لا فائدة، نزعت قميصي وصرت أضرب به ألسنة النيران ولم يجد، حملت الخزانة على صدري وحاولت أن أخرجها من الغرفة لكن حرارتها التي التهمت صدري جعلتني أسقطها من بين يدي بجانب النافذة.. وإذا النيران تلتهم الستائر وتبدأ الغرفة بالاشتعال، كل ما استطعت عمله هو الهروب من الغرفة وإغلاق الباب وسد المخارج بمناشف مبللة واتصلت بالمطافئ لتتولى أمرها .. لقد احترق صدري وأطراف يدي، حتى الشعر الخفيف الذي كان يغطي صدري انسلخ تماماً ليكشف عن جسد أملس بقطعة حمراء.. لم آبه للألم ولكني كنت أراقب محاولة تعلن تشوهي وتزيدني دمامة.. رجال الإطفاء إخماد الحريق الذي التهم غرفة أمي بالكامل.

أصبحت جدراناً سوداء وأعمدة سرير متهاوية، لقد احترق كل شيء حتى وسادة والدي برأسه المحفور بها، حتى لحاف أمي الذي لحفتها به عند موتها احترقت الغرفة كاملة بما فيها الخزانة التي لم تترك أثراً لشيء كان بداخلها..

رماد أسود بعيني.. وقلب بداخل صدر محترق، وعين يملؤها اليأس، ورأس يكاد أن يجن..

كيف حصل كل هذا يا جبران؟!

على رائحة الرماد المبلل بالماء والدخان المشبع بالمنزل كنت أجلس وأنفث بسيجارتي العاشرة، بيدين متسلختين وأصابع محترقة وصدر مشتعل، لقد وصلت من الألم لدرجة أنني مخدر بالفعل، ذاك الشعور المهيب الذي تتمنى ألّا تصل إليه يوماً ما.. لقد احترق السر يا وجوم بسبب هذا الأحمق الماثل أمامكم الذي لن يكشف سر ما حصل، أنا الأحمق الذي أشعل السر بيديه ليكشفه...

لقد تحولت غرفة أمي للرماد وهذا الأمر مريح نسبياً بالنسبة لي، لقد كانت تجلدني ذكراها في كل مرة أعبر فيها من جانب غرفتها وأشتم رائحة الأكسجين النتنة أمر مريح أن تحرق غرفة ميت اخترت أنت موته..

أمي أنا متعب

لقد احترقت أجزاء من جسدي وأشتم رائحة لحمي

لقد شربت الكثير من السجائر لأطفئ وجعي

لا أعرف أي مسكن كنتِ تداوينني به كلما مرضت

ولا أعرف أي لفافة وضعتها على يدي بعد ما احترق أصبعي من إبريق الشاي الحار

لقد كنت تنفثين عليه من أنفاسك ليبرد

أنفاسك التي كتمتها بأصابعي هذه

لقد احترقت يا أمي

أهكذا يعاقبني الله على موتك ؟!

لا يزال لدي رصيد نوم كاف جعلني أغط بنوم عميق رغم الألم لولا أن صحوت على صوت الهاتف الذي لم يكف عن الصراخ والرنين إنه المحقق الذي اعتبر أن الحريق قضية ويطلبني للاستجواب... ربما ليتحقق من أهليتي للحياة أو يجد لي مخرجاً آخر..

جلست أمامه بغرفة مستطيلة تفصل بيننا طاولة خشبية خشنة ومتقشرة الجوانب يعلوها رزم من الورق بطريقة فوضوية، بجانبه يجلس شرطي نحيل أسمر البشرة وظيفته أن يكتب كل شيء حتى أنفاسي..

بدأ بالسؤال..

كيف حدث هذا ؟

صمت لوهلة وأنا أنظر ليد ذاك الشرطي النحيل والقلم يهتز بين يديه ينتظر كلمة مني لينطلق منزلقاً على الورق

- لقد كنت أحاول أن أحرق ورقاً لا حاجة لي به

تحرق ورقاً في منتصف الغرفة !

- هي كانت ورقة واحدة لم أتوقع أن تسبب كل هذه الكارثة.

تحرق ورقة بجالون بنزين!

- عاودت الصمت ووجدت أن أعذاري غبية جداً فلا حيلة ولا مخرج منها إلا التمثيل..

نظرت إليه وأجبرت الدمع الكاذب أن يجتمع بعيني وقلت له : أنا رجل ضعيف لا أقوى على فراق أمي، لقد حاولت كثيراً نسيانها ولكن رائحتها بالغرفة تجعلني حبيساً بها.

حتى اسأل مقر عملي منذ متى أنا في إجازة مفتوحة

أنا رجل انهار من الداخل ولا حيلة لي سوى حرق الغرفة، ولكن حمداً الله أنكم سيطرتم على الوضع قبل اشتعال المنزل بالكامل يا سيدي، أرجوك التمس لي العذر..

ظل ينظر لدموعي المزيفة وربما حروق يدي جعلته يتعاطف معي ويكتفي بالتوقيع على تعهد بعدم تعريض حياة الآخرين للخطر عن طريق مثل هذه التصرفات.

أبتسم وأنا أوقع، لقد وقعت إقراراً بعدم تعريضهم للخطر وأنا أسلب أرواحهم ولم يشعر بي أحد منهم

الشرطة بمدينتي تشتم رائحة الدخان لكن لا تشتم رائحة الموت. من بين كل الأحداث وبين كومة من الأسئلة التي أبحث لها عن إجابات تظهر كمد من جديد بعد غياب دام لأسابيع.. كان يتملكني غضب تجاهها والكثير من كلمات العتاب أود أن أزفرها بوجهها دفعة واحدة، لكن تينك

العينين اللوزيتين وذاك المبسم بالشفاه الممتلئة تغلبني، تجعلني أبتلع كل غضبي لأفتح لها ذراعي وأقول اشتقت لك يا حبيبتي!..

لقد شممت خصلات شعرها وعاد لي توازني من جديد، ولففت يدي حول خصرها وضممتها لصدري المحترق والذي لا يزال يعاني من أثر الحريق ويحتفظ بطبقة سوداء كقشور أخيرة قبل الشفاء.. تنظر لي وتمرر أصابعها بلطف وتهمس : هل تأذيت ؟ هل المك هذا ؟

ضممتها لصدري وأنا أشتم مفارق خصلات شعرها ويتنهد أقول ..: الآن لا أشعر بشيء

ليتك كنتِ هنا منذ لحظتها لعل كل ما شعرت به لم أشعر به...

يا حبيبتي كنت متعباً جداً وغيابك يرهقني...

كيف آتي بك كلما رغبت؟

كيف السبيل إليك!

أين منزلك ومن أي أرض ؟

حتى لو كنت من قاع بحر أو أعلى جبل.

تبسمت كمد وقالت:

تأتي بي كلما قدمت قرباناً.. كلما جمعت رصيد نوم إضافياً.. كلما عجلت بروح للسماء، كلما كتمت أنفاساً وجئت ترقص بها.. هنا أبعدت يدي من

خلف ظهرها وابتعدت بضع خطوات... وكأني أريد أن أستدرك ما قالته !

تقهقه عالياً وهي تلف خصلة من شعرها بين أصابعها بغنج وتقول:

أو تظن أني لا أستمتع بكل هذا؟!

أستمتع بالتأكيد

أنا كمد ابنة غيلان.. حاشيتي تتبعني وتتبعك.. تترصد لك تحفظ خطواتك أنفاسك وحتى أفكارك ، تبشرني قبل قدومك لي عن الضحية وكيف تخلصت منها، كيف كانت تعابير وجهك حينها، وكيف تتحول لبطل أعشقه أنا ..

لولا أنك عنيد وثرثار لحظيت بالقصة كاملة العرافة وجوم و عرفت ما الذي يدفعك إلى هذا ومن هذا الذي يسكنك...

قصتك يا عزيزي رائعة متعطشة للأنفاس للنبض للشهوة التي تدفعك في كل مرة للقتل...

هنا بهت لوني وتراجفت أطرافي وأحسست أني محاط بشرطة ولكن هذه المرة يعرفون كل شيء ولا تجدي حيلة البكاء بشيء..

عرفت من كمد أن العودة لوجوم مستحيلة وأن لا طريق آخر لمعرفة حقيقتي والسر الذي تعرفه عني ولا أعرفه.. ولدي حل آخر هو أن أنتظر عفو وجوم عني لعلها تسمح لي بالزيارة..

لقد توسلت لكمد أن تجعل لي طريقاً أسلكه لمعرفة الحقيقة، لكن كل الحقيقة عند وجوم تلك العرافة اللعينة التي تحكمها المزاجية والقوانين..

أمضيت ليلتي كلها ما بين شرب السجائر والتأمل بالسقف لقد تناولت الكثير من المهدئات في الآونة الأخيرة، كنت أريد من كمد البقاء معي وقتاً أطول ففي وجودها لا أحتاج لمثل هذه المهدئات، لكن هي تعذبني بحبها، كنت دائماً ألوم نفسي لم أعطيتها هذا الحب رغم أنها تستحقه، لقد كانت دائماً معي والآن تأتي كقطرات مطر على أرض متصحرة لا تروي ولا تبلل تربة ولا تزهر أرضاً، النساء لا يستحققن كل المشاعر دفعة واحدة، فإذا حصلت عليك دفعة واحدة فسوف تتركك لهذا الاحتراق دفعة واحدة لا ترحمك فهي يروق لها هذا الاشتعال وهذا الشوق

أنا لم أهبني يوماً لامرأة، لقد كنت أكتفي بالجميلات من بعيد وأترك مسافة آمنة تحميني، حتى أنني لا أتضور جوعا الحضن امرأة ولا أهتم لأن نبيت بجانبي شقراء أو سمراء، ولا أن تترك إحداهن لون أحمر شفاه على رقبتي أو بقعة داكنة أيضاً ...

متعدداً على الأريكة مواجهاً لنافذة غرفة الجلوس كعادتي وضوء عمود الكهرباء بالشارع يضيء وينطفئ متذبذباً منذ شهر ولم يصلحه أحد.. لقد ناديت بصوت مخذول : كمد كمد.. ك م د لكن لا جواب صرت أنظر للجدران لا الأبواب فلقد اعتدت أن تأتي من جدار ومن سقف تخترقه لتسقط بحضني..

ويذروة ما أشعر به من هذيان وتعب وأرق بدأ يقتص من روحي وكما تفعل كمد بكل زيارة لها تأخذ من رصيد نومي وتهرب به دون حتى أن يحق لي مساءلتها أو مطالبتها، وكأنها تعاقبني هي الأخرى بالأرق...

من بين هذا الضجيج الذي يملأ رأسي أسمع نباح تلك الكلبة التي بمنزل العجوز بهية، إنها الرابعة فجراً ولم تكف عن النباح منذ نصف ساعة.. بخطًا متثاقلة وسيجارة مرتخية بين شفتي وشعر خفيف متطاير برأسي وبنطال قطني طويل وصدر عار وبطن مكشوف مشيت مطفأة السجائر الزجاجية والتي أنوي حذفها بخطوات للنافذة ومعي لعلها تصيب تلك الكلبة وتسكتها أو تقتلها، ما أن فتحت النافذة حتى وصل لي صراخ الشاب مع عمته العجوز، إنه أمر معتاد هي دقائق وسوف يذهب هذا الثمل لغرفته، وكعادتي أتتبع رأسه من بين نوافذ منزله حتى يصل لغرفته ويغلق الباب وتظل عمته العجوز تلقي أنواع الشتائم عليه حتى تتعب ومن ثم يصمت الجميع وينامون...

وأظل أنا أتابع خط أحلامهم وسيرها وأنا أحتضن الأرق كعادتي .. بقيت أنتظر الشاب راجح الثمل أن يصعد لغرفته بعد كل هذا الصراخ وكل هذه الشتائم من عمته لكن هذه المرة صراخ العجوز كان يعلو .. لم تكن الرؤية واضحة لي كون غرفة بهية بالطابق السفلي وهناك شجيرات تحجب الرؤية.. لم أبال في الواقع كثيراً لهذا اتكأت برأسي على زاوية النافذة واكتفيت بنفث دخان سيجارتي واستنشاق هواء الفجر ..

وإذا بي أسمع صرخة للعجوز ، ثم هدوء.. ذاك الهدوء الذي يقلقك ويجعلك تهرع.. أخرجت نصف جسدي من النافذة أحاول أن أرى شيئاً

لكن لا شيء.. هنا استجمعت قواي ونزلت بخطأ سريعة حافي القدمين وما أن وصلت لباب منزلي وفتحته وإذا بالشاب راجح ينظر لي وهو فزع ويركب سيارته يديرها بيد مرتجفة ويهرب بعيداً، الوجه الذي فر من جريمة حصلت..

دخلت للمنزل ونباح الكلبة يتبعني كعادته.. للمرة الأولى أدخل منزل العجوز رغم أنني أرقبه منذ سنوات من نافذة غرفتي، لهذا أنا أعرف جيداً أين غرفة العجوز.. ما أن دخلت إلا وجارنا الآخر وزوجته خلفي تماماً.. هما أيضاً أفزعهما صوت الهدوء بعد الصراخ. وهما أيضاً شاهدا خروج الشاب الثمل من المنزل..

دخلنا جميعاً لنرى أن العجوز غارقة بالدماء.. لقد ضربها ابن أخيها على رأسها كما يبدو لي من زجاج متناثر وورود أيضاً.. يبدو أنها جمعت تلك الورود في الصباح ورتبتها في تلك الفازة الزجاجية ولا تعرف أنها ستلقى حتفها بتلك الفازة نفسها ..

هرع الزوجان للاتصال بالإسعاف بينما أنا اقتربت من العجوز وكان نبضها يرف بلطف برقبتها .. وعيناها تنظران لي تطلب الرحمة، لم أقاوم ذاك الرفيف الذي برقبتها المتجعدة الملساء، اقتربت منها وتظاهرت أنني أفحص نبضها وأتحقق منه أمام زوجة جارنا.. وضعت أصابعي على رقبتها وتراقصت روحي طرباً أغمضت عيني أقاوم هذا الشعور ... ثم طلبت من زوجة الجار التي تقف فوق رأسي أن تحضر ماء محاولاً أن أصرفها عني وعما سوف أفعله.. همست للعجوز : لا تخافي سيف تستريحين من هذا الشاب الثمل اللعين للأبد، ظلت تهز برأسها أن لا

تفعلها وكأنها شعرت بما سأفعله تبسمت بمكر وضغطت بأصابعي على رقبتها بخفة تتبعها قوة ثم جمعت رقبتها بكف واحدة لقد كانت نحيلة وطرية وملساء. لا قدرة لها على المقاومة .. نظرت لي والدمعة الاختناق وسالت تقف على طرف عينها ثم فاضت روحها كطير سريع الاختناق وسالت دمعتها على تلك النهاية التي لم تخطط لها.. انتابني شعور أن أضحك عالياً لكني تمالكت نفسي حتى لا أفضحني..

جاءت زوجة الجار بكأس الماء مسرعة وأنا مطأطئ رأسي وقال ربما فات الأوان..

صرخت: يا للمسكينة وهرعت تغطيها.. وصلت سيارة الإسعاف والشرطة وأنا أنظر لهم وهم يأخذون الأقوال من جارنا وزوجته والدور سيحين علي لكني كنت أحفظ ما يقولونه لأكرره بدوري أنا ..لقد كنت أنظر للعجوز وهي محمولة فوق الحمالة القماشية الصغيرة ومغطاة بغطاء أبيض مرقع بالدم.

كنت سعيداً أنني قمت بإنهاء رحلتها منها طويلاً ما بين أرملة لرجل حرب لم يعد ولم تحظ بجثمانه لتدفنه وتزور قبره، وما بين عمة لشاب ثمل تتكبد بدفع مصاريفه وتتحمل مشكلاته التي لا تنتهي، والتي عجزت عن مداواته وعلاجه وحتى عن إصلاحه...

الآن هي انتقلت بهدوء للسماء بفضلي.. وابن أخيها الثمل متهم بالقتل وسوف ينام بقية عمره في السجن...

الحكاية بسيطة منذ البداية ولولا تدخلي هذا لبقيت بعذاب ما بين المرض جراء الحادث وبين هذا الثمل.. أنا بارع بصناعة النهايات السعيدة دائماً.

لقد مات أحدهم
حان وقت الاحتفال..

عدت للمنزل بروح تتراقص فارداً يدي كالطير أحلق حول كل شيء بسعادة لا متناهية أغني بصوتي أغاني الزمن الجميل، وأعزف بدندنات بحنجرتي طرباً، أحضر عصير العنب وأنا أتمايل بخاصرتي وأرفع قدماً وأضع أخرى أرقص مع الهواء والفراغ، أشعل السيجارة وأضعها بين شفاهي وأغني وهي أيضاً بين شفتي وأتمايل بالكأس. وأحرك بيدي وكأن بين يدي لوح بيانو، هذه النشوة المعتادة التي تأتي بعد كل روح أعجل بها للسماء، هذه رقصة الشيطان بداخلي، يحتفل معي بما قدمت وسوف يكافئني برصيد نوم فاخر لعدة أشهر..

أشعلت الشمعة الأولى وإذا بالشمعة الأخرى تضاء وحدها، وإذا بها كمد.. أشعلتها لتحتفل معي، لقد كانت فاتنة جداً هذه الليلة، للمرة الأولى أرى امرأة ترقص بهذه الطريقة المجنونة، الممتلئة بالأنوثة لقد كان جسدها طريّاً جداً وهي تتمايل، ضحكنا كثيراً وثملنا بعضنا ببعض، لقد كافأتني هي الأخرى بما فعلت، وقالت لي :

أنت بطلي

قالتها بصوت يشبه صوت الشيطان بداخلي

صوت يشبه صوت المتعطش للدم ولقد ارتوى للتو من كأس مركز صوت يصفق لك ويدفعك أن تفعل كل ما يحلو له، ذاك الصوت الذي يجعلك تتضخم لتحكم الليل بأكمله سماء ونجوماً وقمراً، ظلاماً ووحشة وسهراً وأرقاً، أنت الملك وحدك بعد ما فعلت..

لقد غفوت ويدي على خاصرة كمد بعد ليلة طويلة من الحكايات والضحك والأنس.. غفوت وعيني على الطاولة المجاورة السريري والتي بها مذكرات زينة وتذكرت ذاك النص الذي قالت به زينة لحبيبها كنعان:

حبيبي كنعان

لقد كنت بطلاً هذه الليلة، للمرة الأولى أراك متعرقاً وكأنك شاركت بسباق جري طويل القردة لقد أشبعتني غزلاً، حبّاً، احتضاناً

لقد قلت يا حبيبتي (..) خمس مرات

وبكل مرة تذكر اسما غير اسمي

لقد انتظرت اسمي من بين المحاولات الخمس لكنك لم تلفظه

لقد اكتفيت بجسدك وإن كان قلبك وعقلك غائبين..

صباح يوم الأحد.. الصباح الذي يتثاقل منه العالم أجمع، فكيف لو كان صباحاً يجمعك مع محققين ومباحث وشارع مغلق ومكان جريمة وأشرطة صفراء حول المنزل الذي حصلت به الجريمة ولسوء حظك أنك في المنزل المجاور، كل هذا كان ينغص علي يوماً كاملاً، في كل مرة تحقيق وكل مرة استدعاء كوني شاهد عيان وفي كل مرة أشير لزوجة جارنا وأقول: هي شاهدتني عندما دخلت وحاولت إنقاذ العجوز وجارتنا تشير برأسها : نعم لقد حاول هذا..

الضابط الشاب كان ينظر لي بطريقة غير مريحة وكان في كل مرة يسألني عن علاقتي بالعجوز وما أعرفه عنها، ثم عن الشاب إذا ما كان يتردد لمنزلي أو يبيت معي، وفي كل مرة أؤكد له أن لا علاقة تجمعني بهما، سوى أن العجوز كانت تعرف أمي قبل وفاتها، لكن توقفت عن زيارتنا منذ مرض أمي ، فهي عجوز لعينة، تحب الحياة وأمي استهلكها المرض لسنوات..

وعندما زار الضابط مكان الجريمة لأشرح له ما الذي حدث وكيف رأيت العجوز وما كان وضعها كوني الشاهد الأخير الذي كان موجوداً بجانبها، وهذا ما أكدته زوجة الجار حينما قالت إنني طلبت منها إحضار ماء للعجوز ، فذهبت وبقيت وحدي لتعود وقد فارقت العجوز الحياة، كان هذا الضابط ينبش بهذه النقطة وهو ينتظر تقرير الطب الشرعي بكيفية الوفاة، فلم يكفه رأس العجوز الذي كاد يشطر نصفين والدم الذي أغرقها !

هو ينبش عن دليل آخر ربما ليبرئ الشاب الذي لم يجدوه حتى هذه اللحظة ..

حينما دخلنا لبيت العجوز استقبلتني كلبتهم كالعادة بالنباح، وهذا ما جعل الضابط ينظر لها بتعجب، يفترض أنها تألفك كونك الجار، فلم هي غاضبة برؤيتك ؟!

إنه القدر يا حضرة المحقق ربما يكرهك إنسان وربما حيوان وأنا قدري أن تكرهني هذه الكلبة..!

فقلت في نفسي : ربما لو تكلمت هذه الكلية لشكت للضابط أني قتلت جرويها الصغيرين..

جروين قتلت بالأمس وعجوزاً اليوم

ربها علي أن أهتم أكثر بنوعية الضحايا.. فهذا شيء مخز بالنسبة لقاتل نوم متسلسل..

عندما تقدم للأنثى ما تريد

سوف تحصل على مكافأة...

لقد كافأتني كمد بعد قتلي للعجوز .. ليس فقط تلك الليلة التي لكن بشيء أريده أنا وهي تعرف جيداً ماذا أريد، لقد قضيناها وعدتني ! معاً،

أن أقابل العرافة وجوم لتكمل ما بدأت به عن حكاية والدي وعن زيارتها لوالدي وعن السر الذي أحرقته بغبائي..

لقد كنت سعيداً بمكافأة كهذه، فرصيد نوم إضافي ومكافأة من حبيبتك هذا أمر يجعلك سعيداً بلا سبب يذكر ..

لم تحدد لي يوماً معيناً بل قالت إنه سيكون قريباً، أنا على استعداد دائماً لمثل هذه الرحلات المفاجئة أن أطير بسيارة أو أجلس على منضدة مع جنية وعرافة، وأن أستمع الحكاية واقعية من امرأة لا تهرم ولا تموت. في الواقع لم أكن أتوقع أن قريباً هي الآن بتوقيت الجان، ها هي كمد تطلب مني الخروج سريعاً للذهاب، هذه المرة لم تكن سيارة خاصة بمنكر ونكير كما أسميت سابقاً الرجال السود الغلاظ القبيحيّ الوجه المخيفين بالتعامل هذه المرة كانت حافلة صفراء وكأنها خصصت لنقل عمالة لشركة ما، دخلت الحافلة وإذا كل الوجوه متعبة، وجوه لا أعرفها جلست بجوار كمد ثم سالتها: من هؤلاء؟ رفعت أكتافها للأعلى بمعنى لا أعرف..

جلست أتأمل تلك الرؤوس التي تتكئ على النافذة وبصمت طويل ومطبق طوال الطريق لم يتكلم أحد منهم، لقد كانت الحافلة مليئة بالأشخاص فمن الطبيعي أن تسمع صوت أو همس أو حتى تثاؤب أحدهم، لكني لم اسمع شيئًا، والحافلة مستمرة بالسير على طريق ممتد طويل، أخذت منحنى ترابيًّا غير معبد وبدأ الجميع يهتزون من أثر الأرض غير المستوية، على الجانب الآخر المقابل لي، يجلس رجل عجوز وبيده حبة تفاحة

مقضومة بلقمة واحدة، طوال الرحلة أنتظر أن يكملها أو يدعها جانباً، لكنه كان ممسكاً بها ويتأمل الطريق فقط خلف مقعدي مباشرة هناك امرأة مجهدة تمسك بين يديها لفافة بيضاء بها مولود صغير، من الواضح أنه مولود للتو، يغط بنوم عميق طوال الرحلة، فكيف لرضيع لا يجوع ولا يستيقظ...

الهدوء بالحافلة مربك نهضت من مقعدي فلقد أتعبني الجلوس دون حركة، وقفت ولم يلتفت لي أحد كل كان ينظر باتجاه نافذته ولكل واحد منهم حالة تخصه، هذا ممسك بقطعة زجاج بيده، والآخر بعلبة دواء، والآخر بسكين، ممسكون بها ولا يتحركون المنظر مريع وكأنهم تماثيل شمعية تتكئ على النوافذ وتتنفس فقط.. عدت خطواتي للوراء تحسست مقعدي وأنا أنظر لهم وجلست سريعاً وقلت: كمد أخبريني من هؤلاء الذين معنا.. لكن لا إجابة من كمد

التفت إليها ولم أجدها بمقعدها هي الأخرى، لا أعرف كيف لهذه الجنية التخفي بهذه الطريقة رغم سرعة الحافلة، لكن اختفاء كمد يعني أننا اقتربنا من وجوم، فمثلما فعلت في المرة الأولى يبدو أن وجوم لا تريد أن يدخل عليها ثنائي إنس وجان..

توقفت الحافلة ولم ينزل أحد .. نزلت بعد انتظار مدة من توقف الحافلة لا أحد يستقبلك باب الحافلة كان مفتوحًا على ممر ضيق نهايته غير واضحة.. نزلت ومشيت في ذاك الممر وأنا أنادي مرة باسم كمد ومرة باسم العرافة وجوم..

حتى أوصلني الممر إلى منتصف المكان الذي التقيت فيه بوجوم أول مرة.. وهي متربعة وجالسة على بساط من الحصير والسلاسل تملأ رقبتها هذه المرة، وجانبها قط ضخم أسود له بكل عين لون، يبخ بوجه كل من يقترب من المكان، لقد بدت وجوم وكأنها تمارس السحر وليست تلك العجوز التي زارتنا أول مرة بمظهر إنسي ودود

أشارت لي أن أجلس وقالت: تعرف القوانين لهذا لا حاجة أن أعيدها، لا تتحدث لا تسأل لا تقاطعني، يحق لك سؤال واحد فقط قبل المغادرة، كل ما أقوله هو حقيقي أكثر من اللازم لهذا لا داعي لأن تفتش عن حقيقة أخرى..

أومات لها برأسي وقلت: نعم أعرف وأحترم قوانينك، بخ القط علي وبدا وكأنه غير راضٍ عني، مسحت على رأسه وقالت : لا تخف منه هو يذكرك جيداً،

- لكني للمرة الأولى أشاهده ؟

بل رآك، هذا القط هو الحقيبة القماشية التي كنت أحملها معي عندما جئت لزيارة والدتك..

نظرت للقط الضخم وقلت:

- تشرفنا بك مستر حقيبة، إذا لم تتوقف عن البخ بوجهي وإظهار أنيابك الصغيرة فسوف أحولك لفردة حذاء هذه المرة... وجلست أضحك بصوت عال.

نظرات وجوم كادت تخترق عيني وهي تطلب مني جدية أكثر لكني بالفعل أشعر أنني بداخل قصة ورواية عن السحرة تافهة وأنا مجرد كومبارس بها أنتظر أن أكون بطلاً يوماً ما.

كوب من الشراب الأصفر له رائحة أعشاب من الصعب أن تحددها وأنت شخص تشرب القهوة فقط، لكنه يشبه رائحة كوب الأعشاب الذي تحضره كمد لنفسها تشرب وجوم على مهل، هذه الرشفة الرابعة ولا تزال صامتة ولم تبدأ حديثها بعد، وما زلت أهذب نفسي بالانتظار حتى لا تطردني كما فعلت في المرة السابقة..

في الواقع أنا لا أهتم لماضي أبي ولا حكاية أمي، أنا أريد أن أعرف ما الذي تركه والدي ليعاقبني به ليجعلني مصاباً بالأرق، ويجعل أمي تخافني ثم تهملني وتتركني على حافة الحياة أواجهها وحدي وهي تحلم فقط بعودة والدي الذي غاب بطريقة لا أعرفها ولا أعرفه، حتى أنني لا أذكر ،ملامحه، أنا لست مهتمّاً بالماضي ولا أنبش بالقبور، أنا رجل أبحث عن سر دفن مع والدتي مفتاح معلق برقبتها وخزانة حرقتها أنا.. لا يمكن أن تدفن الأسرار بهذه الطريقة الغبية، ربما بها خلاصي مما أعاني، لهذا أنا هنا أعض على شفاهي صبراً وأنتظر أن تنتهي وجوم من شرب كأس الأعشاب هذا.

رضعت الكأس أخيراً من يدها وأنا أتتبع أصبعها المخروطي الذي به خاتم كبير بسبابتها، تحك أنفها وتسألني :

كيف كانت رحلتك ؟

- أنظر لها ولا أجيب في الواقع ربما يكون اختباراً لترى مدى صدقي عندما قلت لها لن أتفوه بكلمة

- أجبني يا رجل كيف كانت رحلتك ؟

هل يحق لي هذا ؟

- نعم طالما أنا من سأل

لقد كانت جيدة فالحافلة سريعة وهادئة رغم أن المقاعد مليئة بالأشخاص

- بالطبع يكونون بهذا الهدوء، وهل يصدر الأموات ضجيجاً !

نظرت لها وقلت : لا أنا أقصد الأشخاص الذين كانوا معي في الرحلة نفسها وليس

الأموات. تبسمت وقالت :

- نعم وأنا أقصدهم هم هم الأموات

إنهم أموات جميعاً وكل واحد منهم يحمل بين يديه طريقة موته التي مات بها

الرجل العجوز الذي يمسك بالتفاحة ولم يكملها هو في الواقع غص بقضمته الأولى ومات والسيدة التي تحمل رضيعها هي أيضاً توفيت أثناء المخاض والتي

بيدها هي مجرد لفافة من قماش تحسبها رضيعها. والرجل الذي بيده قطعة زجاج، توفي بحادث سيارة ومات بقطعة زجاج ضربت عنقه وتخللته حتى بترت عرقه ومات لحظتها نازفاً..

والشاب الذي يحمل سكيناً هو انتحر بهذه الأداة وقطع وريده، هو من اختار سكيناً حادة وأخرجها من درج مطبخه واختار نهايته وطريقتها، لم يعتقد أنه سيموت وجعاً لكن كان أهون عليه من أن يموت قهراً بقصة أوصلته لهذه النهاية.

ومن يحمل الدواء، لقد أحب حتى الجنون ولم يحظَ بحبيبته فتعاهدا أن يموتا بالطريقة نفسها وبعضهما مع بعض، هو ابتلع علبة الدواء وهي خافت من الموت مات هو وبقيت هي..

هو موجوع ليس من النهاية التي اختارها وإنما من العهد الذي قطعه لامرأة كاذبة...

وكل من رأيت هو يحمل أداة موته بيده وطريقة خلاصه جميعهم معك في الرحلة نفسها أرواح ستدفن هناك في أرض العوسج حيث تجتمع الأرواح التي ماتت بطريقة تعذيب وألم.. والعوسج هو نهايتهم الحقيقية.

- العوسج !

لقد أخبرتني كمد قبل هذا أنها تسكن هناك كل قبيلتها تحت شجرة العوسج .

- نعم صحيح، أرض العوسج كبيرة يحكمها غيلان والد كمد هناك مقبرة للأرواح رحيمة، تهاجر لها الأرواح المعذبة من كل هناك.. مكان ويتم جمعهم لتدفن دعنا الآن من رحلتك والحافلة ومن عليها هل تود أن تسمع حكايتك يا جبران ؟!

- في الواقع أريد حكاية والدي التي جاءت بك لوالدتي في تلك الليلة.

كنت أريد من وجوم الاختصار، فلقد يخيفني أن تبدأ بي، فربما كنت أريد من وجوم أنتهي في إحدى الحافلات أحمل هوية موتي وربما أقود حافلة بها كل من قتلتهم بقطع الهواء عنهم، ربما سيعاقبني كنعان أشد العقاب هنا على قراءتي لمذكرات زينة الخاصة.

تبدأ حكاية والدك يافا أو يافع كما هو أراد أن من برلين سنة ١٩٦٩م حيث كان في رحلة عمل هناك، عاد بوعكة صحية شديدة، وصداع وأرق لم يجد له في عالم الطب دواء، وظل يعاني ما بين الأدوية والعقاقير دون فائدة، حتى جاء لي ذات يوم بمنزلي الذي يبعد ساعات عن محل إقامته، لقد جاء لي مع خادمة كانت تعمل لديكم، وهي بالأرجح من دلته علي حيث كنت أعالج بالأعشاب وأداوي بالكي أحيانا، دخل علي بوجه يشبه وجهك الآن متعب و منطفئ، جلس أمامي مثقلاً بكل ما فيه من شكوى، وكل شكواه هو الأرق، تحدث أن أرقه يجلده ويؤدي به للتهلكة، يجعله لا ينام ويشتهي الجنون، الجنون الذي يدفعه لشيء لا يود الإفصاح عنه لكنه يخافه ولا بد من علاج يجعله ينام ليعيش العالم بسلام، أعطيته بعض الأعشاب وتكلمت معه قليلاً ثم غادر غادر غير مقتنع بعبوة وعلاج مؤقت هو ظن أنه يجد حلا جذريّاً، لكن حديثي معه كان بلا

جدوى، هو لا يريد الإفصاح وأنا أشتم رائحة الموت تحوم حوله، وغاب قرابة العام، لتأتي الخادمة من جديد تطرق بابي وتخبرني أن يافا يريد مقابلتي سريعاً، فقلت لها : أنا لا أقدم خدمات منزلية، من يريدني يتكبد عناء الوصول.. أجابتني وهي تغطي وجهها كي لا يعرفها أحد، أن يافا مسجون الآن، ولا يملك من الوقت كثيراً ليعيش..

ذهبت له بعد تردد فليس من عادتي أن أخرج لأحدهم ولكن الخادمة كانت تلح كثيراً بطلبها هذا، ثم إني أخاف من دعوات الأموات، وكان يافا تحوم حوله رائحة الموت ويحمل سرّاً معه سرّاً وربما أمراً خطيراً يود إبلاغي إياه ..

ذهبت بدافع الفضول لا دافع المساعدة، فعينا الخادمة كانتا تمطران بدمعها وتوسلاتها التي جعلتني أشفق عليها وليس على يافا نفسه...

دخلت عليه حيث سجنه، فلقد كان رجلاً مختلفاً عن الذي شاهدته من قبل لقد كان بقايا ،رجل، محطماً ببقع داكنة تلتهم وجهه وعينين حمراوين وشفاه مقضومة بفعل فاعل لقد كان يقضم شفاهه بنفسه حتى تسيل دماً ويحك جسده حتى يترك أثراً وكأنه هوجم من حيوان مفترس بمخالب وأنياب، شعر منتف وحواجب منتفة أيضاً وطوال حديثه كان ينتف شعر حاجبه شعرة شعرة، لقد اتهم بالقتل وهو الآن يواجه عقوبة السجن المؤبد..

لقد أخبرني بيأس وخيبة أنه يريد مني أن أزور زوجته، وأطلب منها أن تتخلص من ابنهما الوحيد جبران

لأن حياته ستشكل خطراً، وأول خطر يحصل هو أن هذا الصغير سوف يقتل والدته خنقاً، وأنه لا يريد لابنه أن يحيا مجرماً وقاتلاً ويكون مصيره مصير والده.

أعطاني وصية بها كل ما ذكره بحال لو زوجته لم تصدقني، واختارني أن تحديداً لهذه المهمة لأنه يريد مني أن أعد شراباً خاصاً لقتل ابنه دون أن يتألم، شراباً خاصاً يجعله يموت دون وجع، ينام بفراشه ولا يصحو...

لم أرد عليه بكلمة واحدة ونهضت من جانبه وتوجهت خارجة من المكان، فكيف لي أن أفعل هذا بطفل ابن عشر سنوات، فكل ما قاله لم يبرره لي، ربما هو يعاني حقاً ويريد لعائلته أن تنتهي معه، به حملت وتوجهت للباب أنادي على الحارس ليفتح الباب فالزيارة انتهت من ناحيتي، قفز مسرعاً وتوسل لي متضرعاً ماسكاً أقدامي وباكياً فقال لي: أنا مصاب بلعنة كارل ،غروسمان، وسوف تخرج مني لتسكن ابني الصغير، سوف يموت الكثيرون من الأبرياء، والأمر يعود لك في هذا! أرجوك نفذي ما طلبته منك وسوف أغدق عليك بكل ما أملك، كان يقولها وهو ينتفض ويتوسل لي دمعاً وعرقاً..

توقفت للحظة

ولم أعزه اهتماماً رغم أنني بدأت أصدقه فإن كارل موجود بالفعل وقبل مئة عام وأكثر ...

خرجت وجدت عند الباب تنتظرني الخادمة بدموعها وخوفها فسألتها: لمَ لم يخترك لمهمة كهذه ؟! فالمهمة سهلة وجبران طفل يمكنك بسهولة التخلص منه كونك تسكنين معهم في المنزل نفسه

فعرفت أنها عشيقته وقد طردتها والدتك من المنزل.

بعد مرور عام.. سمعت أن والدك قتل نفسه في السجن، لم أتعجب

من هذا فلقد كان يحاول هذا منذ أن رأيت جسده المعذب وكأنه يريد الخلاص، لقد شنق نفسه وترك رسالة من دمه مكتوبة على الجدار قال فيها :

(أنا رجل مسكين يسكنني سفاح مرعب، هو من قتلني، أرجوكم أنقذوا جبران)

انتشر خبر وفاة يافا وما كتبه على جدار الزنزانة سريعاً...

ظل عالقاً برأسي كل ما قاله وتحديداً عن لعنة كارل غروسمان.. توقفت وجوم عن الكلام، توقفت عند اللعنة ولم تكمل !

وأنا توقف نبضي عند أنقذوا جبران !

لا أعرف على أي مفترق من الطرق أقف.. لكن لنبدأ بكارل غروسمان ومن يكون !

وما هي اللعنة التي أسكنها بجسد والدي ليورثني إياها !

عن ماذا وما الذي تفعله وإلى أين تؤدي بي !

تساؤلات كثيرة تركتها وجوم فوق رأسي وغادرت هي بكل ما تحمله من أسرارٍ لم تبح بها بعد !

كان يحق لي سؤال واحد بعد هذا كله، لكنها قالت إن الوقت معها انتهى وسوف تأتي بي مرة أخرى حينما أكون مستعداً لهذا !

لا أعرف أي استعداد تريدني أن أحضر به المرة القادمة !

هل أحضر والدي الذي قتل نفسه شنقاً أو أحضر والدتي التي قتلتها أنا خنقاً !

عدت ومعي الكثير من الأرق والكثير من الألم الذي صنعته الأسئلة التي تنخر برأسي وأنا رجل لا يفلقه القلق بقدر ما يثير الفضول !

في صباح اليوم التالي ذهبت لقهوة المصباح فلقد كان مصباح يتباهى دائماً أن ابن أخيه يعيش من سنوات في برلين وهو باحث تاريخي، طلبت من مصباح أن ألتقي به حيث إنه يقضي إجازة نصف العام هنا، بين أسرته

قال لي إنه مشغول وبالكاد يجد وقتاً، صرخت بوجهه وأخبرته أن الموضوع عاجل ولا يحتمل هذا التعالي، فأنا هنا لأقابل ابن أخيك وليس الوزير بنفسه.

المصباح يعرف مزاجي جيداً ويعرف ماذا يعني أن أكون بمزاج سيئ .. لهذا هو يتجنب دائما هذا..

أخبرني أن آتي إلى هنا مساء فسيدبر لقاء مع ابن أخيه

وبالفعل قبل المساء وقبل المغيب كنت أنتظره، شربت ثلاثة أكواب من القهوة المرة.. وست سجائر، لم أكن هادئاً بالطبع فالانتظار مؤذي. بالنسبة لرجل مثلي.

جاء أخيراً، رجل في نهاية الخمسين من عمره، بدين بوجه أملس لا وجود للشعر به أقرع الرأس، ولسان عريض أشعر أنه يبزق كلما تحدث، لكن تدرك للوهلة الأولى من حديثه أنه موسوعة تاريخية لا يستهان بها..

بالإضافة إلى أنه قارئ نهم ومهتم بالقصص والحكايات المترجمة حيث يعمل هو أيضاً على ترجمة بعضها للغة العربية..

وسيلة البحث بالإنترنت غير مشاعة والوصول لجهاز كهذا يحتاج واسطة كبيرة، فهو لا يزال حصراً على الجهات المعنية بالدولة، فلم يكن لي وسيلة لمعرفة ما حصل في برلين منذ مئات الأعوام إلا من أفواه المؤرخين وربما الباحثين والدارسين بعلم الجريمة..

كان ابن أخي المصباح يفي بالغرض فجميعنا نعرف من المصباح كم هو على علم ودراية بأمور كثيرة..

كارل غروسمان

هل تعرف عن حكاية هذا الرجل شيئاً ؟

- سكت قليلاً

ثم قال لي : وهل أنت مهتم بقصص الجرائم ؟!

بُهت للحظة ثم تبسمت أحاول أن أخفي ذهولي بعد كلمة جرائم

- في الواقع لدي صديق مهتم بها، وطلب مني أن أبحث معه عن قصة هذا الرجل، إنه يعد بحثاً بهذا وأنا أحاول مساعدته لا أكثر .. وكما تعرف من الصعب الحصول على معلومات بصورة سريعة، فالأمر يتطلب رسائل والانتظار لأشهر أخرى حتى يجيء الرد من أصحاب الاختصاص.

شبك أصابع يديه وأنزل رأسه قليلا وكأنه يحاول أن يتذكر وربما يبحث من أي نقطة يبدأ.

حاولت تسهيل المهمة عليه وقلت :

لا بأس ابدأ من حيث تجد أنه مناسب، خذ وقتك ولكن أريد كل التفاصيل حتى التي لا ترى أنها مهمة...

قال : حسناً.. إذا تسمح لي فالليلة سوف أكتب لك كل شيء وأدونه وأرسله لك مع عمي مصباح..

لا..

قلتها بصوت عال

لا أريد تدويناً، احكِها لي وهذا يكفي، أنا سوف أدونها بذاكرتي.

- ولكن كيف سوف تنقلها لصديقك ؟ إذا كان يحتاجها لبحث فلا بد من التدوين

لقد نسيت حكاية صديقي تلك، فتداركت وأخبرته أنني بارع بالتدوين، بذاكرتي لا عليك هات القصة وكل ما تعرفه عن هذا الرجل..

طلب فنجان قهوة.. واعتدل بجلسته وبدأ يحكيها لي..

كارل غروسمان

قصة حقيقية

١٨٦٣ م – ١٩٢٢ م

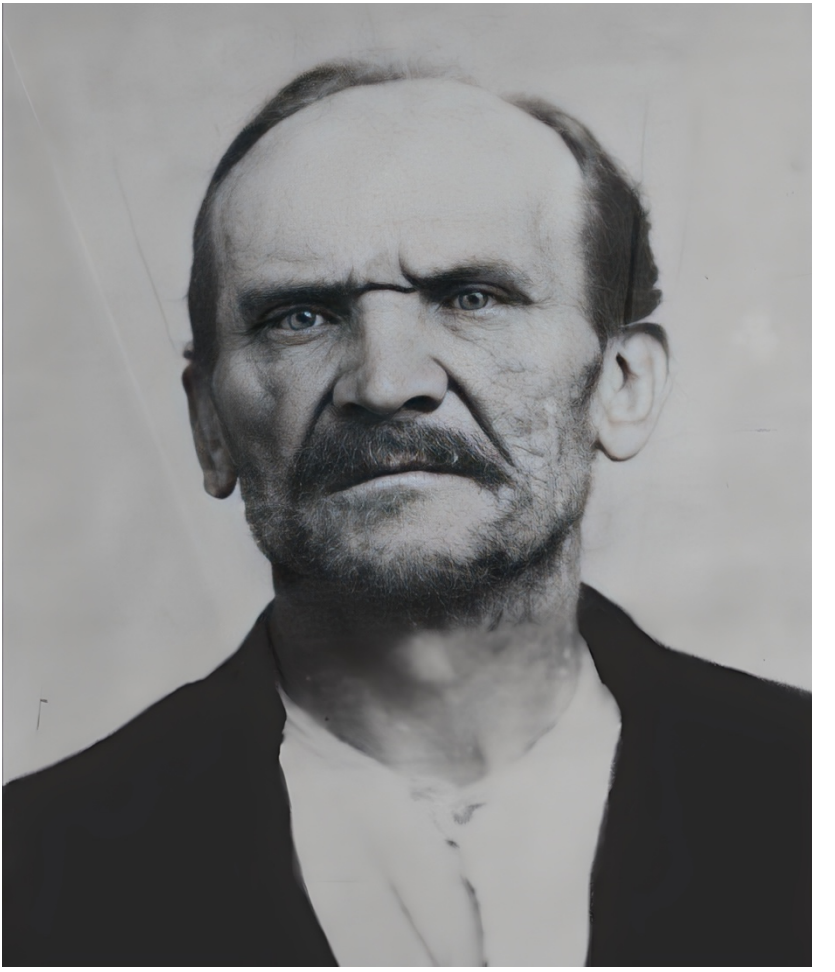

كارل غروسيان

سفاح ألماني.. ولد وهو مجهول الهوية، تربى في دور الرعاية في طفولته، دون أسرة ولا عائلة افتقد لأجواء الاحتواء والحياة الطبيعية التي يعيشها أي شاب.. كان انطوائياً لا صحبة ولا رفاق.. تعلم مهنة الجزارة وصار يعمل بها لم يكن له دكان خاص بل يعمل لدى أحدهم .. فطوال النهار يعمل على تقطيع اللحم وبيعه، أحب مهنته جداً وكان يقضي جل نهاره بها دون أن يشتكي من تعب كان صاحب العمل مسروراً من أدائه هذا.. ويكافئه في كل مرة لسرعته وهدوئه وانضباطه.. حتى جاءت الحرب العالمية الأولى.. وشارك بها إجبارياً كجندي صغير نحيل القوام لا يجيد بفن القتال شيئاً..

أخذت الحرب الكثير من الخيرات وخلفت وراءها الدمار والفقر والجوع.. عاد من الحرب ولم يجد ما يعمل به، فما عادت هناك لحوم للبيع، فالأبقار والمواشي ارتفع سعرها جدّاً وما عاد أغلبية الناس لديهم قدرة على الشراء..

كان يجوب شوارع برلين يبحث عن مجزرة ليعمل لديها ولو بأجر زهيد، لكنه لم يجد .. فالمتاجر قليلة وأصحابها هم من يعملون بها، تفادياً لدفع رواتب لعمال إضافيين..

وصل لمرحلة من اليأس أن يجد ما يعمل به و ، وخصوصاً أنه لا يجيد إلا مهنة الجزارة في كل مرة يحاول في مهنة يفشل بها، حتى أنه اعتاد

على الجوع وصار مهدداً بالطرد من شقته الصغيرة إن لم يدفع الإيجار، فدخل حانة ليروح عن نفسه ويشرب كأساً ربما تدفعه له إحدى الغواني بمقابل أن يجلس معها أو يراقصها أو حتى يحمل حقيبتها، لقد كان يحاول أن ينسى كبد يوم شاق مضنٍ دون عمل، فجلس بها وكانت الحانة مليئة بالنساء الغواني يرقصن على أنغام الموسيقى وهن ذاهبات العقل بغمرة السكر، فجلست إحداهن إلى جانبه وظلت تضحك وتتحدث وتتمايل، جلس ينظر لجسدها وكانت ممتلئة قليلاً، ينظر لها بعين الجزار لا عين الشهوة والرغبة، فتحركت بداخله رغبة عارمة لاستخدام سكينه مرة أخرى بعد أن غاب عن مهنته لأشهر طوال..

لم يتردد بدعوتها لشقته، متظاهراً أنه قادر على دفع أجرتها وأن تحظى بليلة خاصة معه، لقد كان يسكن ببناية متهالكة من ثلاثة أدوار بحي جانبي قديم.. أخذها وهو يحضنها وهي بالكاد تحاول المشي.. حتى إذا دخل شقته وأغلق الباب..

أجلسها على أريكته الوحيدة وقدم لها مشروباً آخر يعده هو حتى يغيب عقلها تماماً .. وهي تتمايل بغمرة سكرتها..

في هذه اللحظة يقترب منها كارل برغبة ونشوة تسيطران عليه ليقتلها دون رحمة وقد أعد معلاقاً حديديّاً لديه، كان يستخدمه سابقاً لتعليق الذبيحة ليقطعها..

أخذ الضحية وجردها من ملابسها ومقتنياتها، ووضعها في كيس وكتب عليه اسمها، ثم أخذ الفتاة وعلقها على هذا المعلاق الحديدي وبدأ يمارس مهنته بكل تلذذ وحب وشغف، فقطع الرأس وسلخ الجلد وقطع

اللحم لقطع متساوية.. وفي فجر اليوم التالي أخذ الرأس والعظام وتخلص منها في النهر .. وأخذ اللحم وصفه على العربة وخرج لبيعه، لينادي ويقول : لحم مخفض لحم رخيص...

فهو ينظر أن الغواني لحمهن رخيص لهذا قرر بيعه..

لقد كان الناس يقبلون عليه ويشترون من اللحم ولم يعرف أحد منهم أنه لحم بشري.. وكان يعود كل مرة وقبل المغيب وقد باع اللحم كله...

وجد كارل بهذا صنعة جديدة، عاد بها إلى مهنته وهي الجزارة.. وكل مرة يعود للحانة نفسها، ويختار ضحية أخرى، ويأخذها لشقته المتهالكة.. ويجردها من أشيائها الخاصة ملابسها عقدها حقيبتها ويضعها في كيس ويكتب عليه اسم الضحية وعبارة (أنا لست لصاً، أنا مجرد جزار)

يفعلها كل مرة بمهارة ودقة ،وإتقان كوحش بشري يسكنه لا أحد يستطيع حتى اتهامه، فهذا الرجل النحيل ذو الشعر الناعم الذي يصفه جانبا وبربطة عنقه الأنيقة، لا يبدو قاتلا مطلقاً، لكن كان هادئاً ومسالماً ووحيداً بلا زواج ولا إنجاب ، لقد كان يقول دائما إنه لم يتزوج خشية أن يقتل أبناءه أو يصبح أبناؤه قتلة يشبهونه بهذا.

لقد كان يفعل بكل ضحية كما يفعل بسابقتها، يعلقها ويقطع رأسها ويبيع لحمها على عربته في اليوم التالي، لينادي : هنا لحم رخيص لحم مخفض..

حتى فاض اللحم لديه فكل يوم يأخذ ضحية جديدة، وفي كل مرة يستلذ بما يفعله وبكل وحشية.. وفي كل مرة يحتفل بعد الانتهاء من بيع اللحم كاملاً..

وذات يوم خرج من الحانة حزيناً لأنه كان يوماً ممطراً ولا وجود للغواني بكثرة، فلم ترضَ أي واحدة منهن الخروج معه، فخرج وهو يمشي على الرصيف وإذا بفتاة شابة جميلة جداً واقفة تنتظر الحافلة تحدث معها قليلاً ثم أخبرها أن الوقت متأخر ولن تمر الحافلة من هنا، فأبدت خوفها وأن لا بد لها من العودة للمنزل، لقد كان منزلها يبعد قرابة الساعة، اقترح عليها كارل أن تأتي . معه لمنزله وتنتظر حتى الصباح وتذهب لتضمن وجود حافلات في هذا الوقت.. وافقت مباشرة وخصوصاً أنها كانت ليلة ممطرة وباردة جداً.. والليل موحش ومنظر كارل لا يدل على أنه يضمر أي دوافع للشر..

دخلت لشقة كارل وكانت خائفة ومتوترة، طمأنها كارل وأعطاها مشروبا لتشرب، وبعد ساعات من الحديث اطمأنت لكارل وشربت الكثير حتى غابت عن وعيها.. ففعل كارل بها جريمته، وبدون رحمة فبدأت بالصراخ والبكاء، ولكن سرعان ما قطع رأسها وسلخ جسدها... وفي الصباح خرج لرمي رأسها والعظام في النهر.. عاد وصف لحمها الطري على العربة وخرج عند موقف الحافلات يبيع لحمها.. فجاء رجل مسرع وخائف وبعينيه الهلع، يسأل المارة عن أخته ابنة السبعة عشر عاماً، وكارل ينظر له من بعيد ويرقبه، حتى جاء لكارل وأراه صورة لأخته وقال له : هل شاهدت هذه الفتاة يا بائع اللحم ؟

فقال له كارل : وماذا تكون لك ؟

قال إنها أختي وهي يتيمة وأنا من أعتني بها، لقد خرجت منذ الأمس ولم تعد ويفترض أنها تكون في هذه المنطقة، يبدو أنك من هنا

هل رأيتها ؟ أرجوك دلني ؟

تبسم كارل بمكر وأخذ من لحم الصبية ولفه بكيس ورقي وقال للرجل : خذ هذا لك، ربما قد عاد معك شيء منها.

لم يفهم الرجل ما قاله كارل ولكنه شكره على اللحم الهدية ولم يعرف أن هذا لحم أخته التي يبحث عنها.

ذهب الرجل المسكين وهو يحمل لحم أخته على صدره ولا يزال يبحث عنها، بينما كارل كان يغط بضحكة مجنونة متواصلة..

لم يتوقف كارل، ولا تزال رغبة القتل تنهش ،بداخله، وشهوة السلخ وممارسة الجزارة على البشر، ولم يكتشفه أو يشك به أحد، فلقد كان مسالماً هادئاً بلا أصدقاء ولا أقرباء ولا حتى معرفة جيدة بجيرانه...

في اليوم الأخير لكارل بهذه السلسلة من القتل والتعذيب، أخذ ضحية كالعادة من الحانة ليفعل بها ما يفعله كل مرة، وبعد أن استدرجها لشقته، أسقاها الشراب لتغيب عن وعيها، وعندما علقها على المعلاق الحديدي ليقتلها بدأت بالصراخ بشكل هستيري وبصوت عال، حاول أن يقتلها بسرعة قبل أن يسمعه أحد، لكنها كانت تقاوم ،وتصرخ، وهنا سمع صاحب العمارة الصراخ وكانت المرة الثانية التي يسمع بها صراخ امرأة

بداخل شقة كارل رغم أنه غير متزوج ليظن أنه شجار مع زوجته مثلاً، لهذا لم يتردد باستدعاء الشرطة، الذين اقتحموا المكان بصورة مباغتة وسريعة وكان للأسف قد قتلها وكان وقت سلخ جلدها ..

هذا المشهد الذي أذهل صاحب العمارة وهو يشاهده، وأذهل كل من كان موجوداً، كيف لهذا الرجل أن يفعل مثل هذه الجرائم الشنيعة، عثرت الشرطة على الكثير من اللحم البشري وعشرات المقتنيات موضوعة بأكياس بأسماء الضحايا وكن جميعهن مفقودات وجارياً البحث عنهن، لقد كتب العبارة نفسها (أنا لست لصاً، أنا مجرد جزار)

لقد حول شقته لمعمل جزارة بالكامل، المعلاق الحديدي الكبير ، السكاكين وأدوات السلخ العظام المتبقية واللحم الذي يتوسط المتكدس في الثلاجة ليبيعه في اليوم التالي.

هنا قبضت الشرطة على كارل وعند محاكمته كان يجلس امام القاضي ويضحك بصوت عال، فسأله القاضي عن سبب ضحكه هذا فأجاب :

- أفكر كم كيلوغراماً من اللحم سيخرج منك، لولا أن يدي مكبلتان لقطعتك الآن !

واستمر بالضحك بتعجب من القاضي الذي حكم على الفور بإعدام كارل ليس لكونه قاتلاً وإنما لأنه أثبت للجميع أنه غير مكترث بمصيره والحكم الذي ينتظره...

في اليوم المقرر لإعدام كارل غروسمان بسجن سباندو وجدوه قد شنق نفسه، ولكنه قبل أن يشنق نفسه ترك رسالة مكتوبة على الجدار من دم يده قال فيها :

(أنا رجل مسكين ولكن يسكنني سفاح مرعب والآن خرج مني وشنقني وهو يتجول في شوارع برلين بسعادة وسيعود للقتل مجدداً ولكن بشكل آخر).

عرفت هذه اللعنة بلعنة كارل غروسمان، لم تعد مجدداً كما قال كارل لكنها حولته من شخص هادئ وانطوائي، لشخص قاتل متسلسل، يمارس هوايته على أجساد البشر بوحشية ودون رحمة...

تحول سجن سباندو الذي تم إنشاؤه في عام ١٨٧٦م وهدم عام ١٩٨٧ م وبني مكانه مركز تسوق...

أمسكت برأسي الذي كاد أن يجن أن يفقد صوابه.. كيف وصلت تلك اللعنة لوالدي ؟ من برلين إلى مدينتي البعيدة جداً، كيف سافرت تلك اللعنة !

تركت الرجل ولم أتمالك حتى لشكره وعدت لمنزلي أبحث عن جواب لهذا كله.. ما علاقة والدي بكارل وما الرابط بينهما !

وما الذي جعل اللعنة موروثة ليخاف والدي علي منها ويطالب بقتلي !

هل سوف أتحول لكارل يوماً ما ؟!

هل أتخلى عن طريقة الموت الرحيم الصامت لأبدأ بنزع الجلد وقطع الرأس !

الكثير من الأسئلة التي تنخر رأسي، عدت بها مثقلاً للمنزل، دخلت لغرفتي وابتلعت كل أنواع الأدوية المهدئة التي حصلت عليها طوال هذه السنوات لعلي أنام بعقل ثقيل جداً وأصحو مفرغاً من تلك القصة وتلك الذاكرة التي حشاها هذا الباحث السمين...

يوم آخر بعمري، يبدأ بمن أكون وإلى أين سأنتهي، صار كارل يلاحقني صوتاً ووهماً، أشعر أنه يقف بسكينه عند باب دورة المياه متأهباً ليعلقني على صنبور الماء ليسلخ جلدي ويعاقبني بكنعان وأمي والبقية

كيف أنني خذلت شيطانه حينما اخترت لهم موتاً رحيماً لا يليق به..

لعنة كارل هي من تسكنني الآن كل ما يربطني به هي تلك النزعة للقتل والشهوة التي تدفعني لها، والقوة التي تدب بأطرافي حينها، ربما لم تكن بقوة كارل ولكنني أفعلها ..

بيد مرتجفة تناولت علبة السجائر ، أخرجت واحدة ووضعتها بين شفاهي المتيبسة وأشعلتها، نفثت دخانها للسقف، وكأني أريد أن أتنفس من الأعلى.. وإذا بكمد تسعل بجانبي، التفت سريعاً وقلت :

مرحيا حبيبتي، أين أنتِ عني، عن كل ما حصل ؟

أحتاج أن أخبرك عن كارل وما عرفته عن اللعنة، عما قالته وجوم لي،

وجوم !

نعم أحتاج بشدة أن أقابلها لتكمل لي ما بدأت به...

وضعت كمد يدها على كتفي ومسحت بلطف وقالت :

لتهدأ يا حبيبي، بالرغم من أنك تبدو مثيراً عندما تكون غاضباً متوتراً هكذا.

أزحت يدها عن كتفي وقلت لها : كمد أتوسل لك أنا متعب وأريد مخرجاً من هذا كله أنا متعب بالفعل ورأسي بحجم كرة مطاطية مليئة بالحجارة..

قالت : وجوم هنا.. وتنتظرك

أطفأت سيجارتي وقلت لها : أين هي..؟

- في الغرفة السوداء..

عرفت أنها تقصد غرفة أمي بعد احتراقها، حيث تحولت جدرانها للأسود، نزلت على عجل متجها للغرفة، فتحت الباب وإذا هي تجلس في منتصف الغرفة الخالية تماما من أي قطع للأثاث، لا شيء سوى جدران شاحبة بالسواد ونافذة عارية من الستائر،

قلت لها : أنا ملتزم بقواعدك وأعرفها جيداً، لن أقاطعك لن أسأل، فقط أريد أن تكملي ما بدأتِ به، فأنا عرفت الآن من كارل هذا.

نظرت لي وقالت :

هل تشتم رائحة أمك في المكان ؟

كيف كانت آخر لحظة لها ؟

هل نظرت لعينك مباشرة وأنت تقتلها ؟!

أسئلتها جعلتني أعود لأعوام للخلف، طأطأت رأسي وقلت :

- لقد مضى ما مضى ولا أتذكر شيئاً

لا تتذكر ؟

ردت علي وجوم وكأنها جاءت لتأخذ بثأر والدتي بعد كل هذه السنوات..

والدتك رفضت قتلك، وأبقتك حيًّا رغم تحذيري لها أنك ستقتلها

يوماً !

- تحذيرك ؟!

نعم

لقد أوصلت لها رسالة والدك ،الشفوية ورسالة منه بخط يده يطلب منها أن تقتلك أولاً ثم تهرب لمصير مجهول وبعيد عن كل من يعرفها،

لقد أعددت خلطة خاصة كما طلب والدك، وهمست لها أنه سوف ينام للأبد بهدوء وهذا طلب والده، ابنك مصاب بلعنة وسيقتلك يوماً ما.

هي تعرف بأمر سجن والدك وتعرف بتهمته وتعرف أيضاً تلك الدوافع التي جعلته يقتل، وعايشت كل مراحل تعبه وشكواه والأرق، لكن الخادمة وهي عشيقته كانت ملاصقة له وهي من صدقت ما يمر به، أما زوجته فلم تتوقف عن الشجار محاولة علاجه دون فائدة، وآخر عهد مع والدك حينما طردته هي من البيت بعد رحلة نقاش وبكاء وظلت تنتظره على أمل العودة من جديد لهذا لم تصدق موته ولم تستوعب غيابه..

تذكرت تلك العلبة المغلفة بورق لامع أسود وخيط أصفر، لقد وضعتها أمي منذ ذاك الوقت بغرفتها وكلما أعطتني دواء ظننت أنه من تلك القارورة السحرية التي تجعلني أشفى بشكل سريع، لكنه عقلي الباطني صور لي هذا كله فالقارورة لو شربت منها ما كنت قتلت أمي وما كنت هنا بكامل جنوني !

ما يهمني الآن كيف جاء والدي بهذه اللعنة !

برلين، بعد عودته من تلك الرحلة المشؤومة والتي قضاها مع وفد مبتعث كان في ذاك الوقت يقوم بعمل بحث ميداني، شارك والدي به...

تقول وجوم:

إنه سكن بفندق قريب من مركز تسوق والجانب الآخر سجن قديم، هناك خطط لهدمه وتوسعة مركز التسوق كان يذهب له كلما انتهى من

عمله، حيث يذهب أصدقاؤه المرافقون له بالرحلة لإحدى الحانات لكن يافا كان هادئ الطباع مسالماً ويحب العزلة بعض الشيء، يذهب لمركز التسوق هذا، حيث كان على زاويته مقهى، يظل يقرأ وينتهي من عمله ويحتسي قهوته ويستمع للأحاديث التي تدور حوله، فلقد سمع من أحدهم أن أمام مركز التسوق هذا كان سجن سباندو قديماً، حيث لا يمكن لأحدهم الهرب منه، ورغم هذا سجل حالات هروب كثيرة لقد كانوا يضحكون ويهزؤون من سجون العالم، كيف لسجين أن يحفر نفقاً بملعقة، ويستطيع الفرار، فقال أحدهم : بل ويشنق نفسه ليجدوه معلقاً قبل وفاته كما حدث للسفاح كارل، لقد تداول الجميع حكاية كارل في تلك الليلة، مما دفع والدك للسؤال عنه وعن حكايته، فهمس له أحدهم : لا تسأل عنه فتصاب باللعنة.. وظل يقهقه عالياً.. ويعاود قولها وهو يغير صوته ليخيفه

ثم قال أحدهم : هل أنت جاد ؟

إذًا اذهب إلى حيث مكان زنزانته وتحسس الجدران ربما يخرج لك

كارل بسكينه ويقهقه بوجهك

لقد كان الموضوع هزيلاً جداً مما أثار الفضول أكثر بنفس والدك، عاد للفندق وظل يسأل موظف الفندق عن كارل وما الذي يتحدثون عنه، وما حكاية اللعنة وما كتبه على الجدار

حكى له حكاية السفاح الألماني المعروف والتي لم تمت رغم السنوات الطويلة، والتي يتداولها الناس

فجاء فضول لوالدك يافا أن يعرف أكثر عما حصل لكارل وكيف تحول من شخص مسالم لقاتل بوحشية، من طفولة مضطربة لشخص مشرد أمر وارد ولكن شهوة القتل التي تدفع به لفعل هذا وبضحايا من النساء!

لقد كان يختار من بعناية فقط ليمارس مهنته وهذا أمر غريب !

خرج يافا في تلك الليلة وقبل العودة لبلاده بثلاثة أيام، وبالنصف الأخير من الليل، حيث كان يشعر بحاجته للخروج بعد أن قضى يوماً طويلاً شاقاً بالعمل، اقترب من جدران السجن المتهالك وظل ينادي بصوت خافت أيتها اللعنة التي سكنتِ جسد كارل، أي قوة بك لتجعلي هذا الرجل يسلخ جلوداً ويقطع رؤوساً ويبيع لحماً بشرياً على البشر ؟! من أين علقتِ به وهل أنتِ حقيقة ؟ وربما تكونين أسطورة افتعلها كارل ليداري على كل جرائمه ويبحث لها عن مخرج وسبب مقنع ليخافه الجميع بعد وفاته ! أنا لا أخاف لا من كونها أسطورة ولا حقيقة، فلا قوة تسكن جسدك لتتحكم بعقلك وتجعلك أسيراً لها، هذا هراء..

ظل يتمشى في شوارع برلين بعدها وجلس على رصيف تقف به الحافلات، وكانت هناك سيدة عجوز تجلس الجو بارد وهي ترتجف، فبدت له وكأنها متسولة وجائعة.. أخرج من جيبه عملة معدنية ووضعها في كف يدها نظرت له و تبسمت ثم صافحته بقوة حتى شعر بوجع في كف يده.. وأخبرته أنه سوف يصبح أفضل بعد اليوم، عليه فقط أن يصدق الأساطير..

لم يفهم ما قالته تلك السيدة لكنها تركته وذهبت وهي تسير وكأنها بذروة شبابها وليست كعجوز انتهى بها المطاف لحافة الحياة..

عاد يافا للفندق وقد أحس بدوار وتعب حاول النوم تلك الليلة لكنه لم يستطع، كلما تلحف لينام شاهد مناماً مزعجاً يقلقه فيصحو ليغتسل محاولاً خفض درجة حرارة جسده التي تزداد وترتفع مع الأرق، وإذا اغتسلت تنزل درجة حرارة جسدك لمعدلها الطبيعي وتواصل الغدة المسؤولة عن النوم عملها، لقد نجحت مرة ولم تفلح الثانية وظل يحارب الأرق ما بين الماء والسهر، واستمر معه الأرق باقي رحلته، حيث إنه كان ينتظر عودته للوطن بأسرع وقت، ظنّاً منه أن تغير المكان هو السبب وراء هذا كله ..

عاد لوطنه ومعه وعكة صحية، ظن بداية أنه تغير بالأجواء وربما تكون من آثار الإرهاق.. لكنه كان يقاتل من أجل النوم لساعة واحدة..

لم يجد مخرجاً من هذا كله.. فجاء لي يشكو علته ويرجو صرف الدواء.. لقد رأيت شيطاناً يتمدد بداخله ويقهقه بصوت عال، عطشاً للدم ومتلهفاً للمقابر..

وأخبرته في وقتها أنك لن تبقى طويلاً، هناك من سيقتلك قريباً.. لقد ارتكب جرائمه بنشوة ولذة ،واحترافية لكنه وقع بقبضة الشرطة، وانتهى به المطاف مشنوقاً بزنزانته..

قبل أن يضيق الطريق

عليك أن تجد مخرجاً..

الصراخ بداخلي يعلو .. الضجيج مستمر الليل يجلدني واللعنة تعاقبني بالأرق، النشوة تقتات على أطرافي جوع كافر للقتل لا بدلي من البحث عن ضحية، لكني أعاقب هذا الشيطان بالحبس... أصبحت حبيس منزلي، أضرب رأسي على كل حائط وأصرخ بوجه الشمس وألعق أطرافي وأقضم أصابعي وأحاول خنق نفسي أوقاتاً عديدة.. ربما كما كان يفعل والدي بجسده حينما وصفته لي وجوم عندما كان محبوساً بزنزانته

عرفت أن الشيطان الذي بداخلي يتخلص منك إذا حُبست هذا ما فعله أيضاً مع كارل غروسمان عندما تم حبسه، شنقه وترك رسالة على الحائط وخرج..

وهذا ما فعله مع والدي بعد حبسه، جعله يعذب نفسه بالضرب ثم شنقه وكتب رسالة على حائط الزنزانة وخرج.. كل ما أخشاه أن يشنقني بداخل زنزانة ويجعلني أكتب رسالتي الأخيرة ويخرج هو يتمشى في شوارع مدينتي ضاحكاً..

قلت لكمد باكياً :

سيقتلني يا كمد..

- لأنه جائع تقولها لي كمد

من هو ؟

أسألها

- السفاح الذي بداخلك

هو يحتاج أن تقتل أحدهم وأنت تحبسه هنا.

لكن لن أقتل أحداً بعد اليوم، ليعاقبني بالأرق كيفما يشاء لن أقتل من أجله أحداً.

- سيقتلك إذاً

ليقتلني..

قلتها وأنا فاتح ذراعي كاشف الصدر أدور بمكاني وأنادي أيها اللعين ها أنا اقتلني.

- أنت خائف.

لست خائفاً يا كمد

- خائف أنا أعرف هذا..

إذا أردت الخلاص.. فاذهب لأرض العوسج

العوسج

أرض العوسج .. أرض صحراء قاحلة لا مكان للعيش الآدمي بها، لا وسيلة تعين على البقاء ممتدة برمالها حيث النهاية، شمسها حارقة وعطشها قاتل، يتوسطها شجرة قصيرة جذورها عميقة ممتدة مفترشة أرض العوسج نباتها شائك من الفصيلة الباذنجانية له ثمر مدور كأنه خرز العقيق واسمه الحضض الواحدة منه تسمى عوسجة...

يسكن تحتها قبيلة من الجان.. قبيلة يرأسها ويحكمها غيلان والد كمد.. لها نفوذها وسلطتها على أرض العوسج على أطراف أرض العوسج مقبرة للأرواح التي مات أصحابها تعذيباً .. وظلت أرواحهم تطوف تبحث عن الراحة الأبدية.. تسافر لها الأرواح لتستقر هناك وتنتهي...

وبعيداً عن شجرة العوسج التي لها قدسيتها لدى الجان، من يقترب من شجرها وثمرها يسمع صراخ الحماة للشجرة.. فيفر مبتعداً خائفاً ... الحياة لا يفارقونها ثوانيَ هم ملاصقون لها، يصرخون بوجه كل من يحاول أن يقتلع ورقة من العوسج ومن لم يخفه الصراخ سيلقى حتفه، تحرقه الجان أو تقتله بطريقة خاطفة لا يستطيع معها حتى النداء أو الاستغاثة حماة أقوياء لا يرف لهم طرف ولا يغفل لثوان،

لهذا هي محمية من قبيلة جان قوية.. يتنازع على حكمها قبائل أخرى.. لكن غيلان استطاع السيطرة على أرض العوسج ...

لم تكن السيطرة بالأمر الهين فلقد قدم الكثير من البطولات والتحديات لمئات الأعوام، نزحت له الكثير من القبائل وصارت تحت لوائه، جنود من السماء وجنود من الأرض، استطاع بحكمته أن يسيطر على أرض العوسج التي لا تزال تحاول قبائل من عالم آخر السيطرة عليها،

شجرة العوسج تتحرك كلما ارتكب أحد من حكام وملوك العوسج خطيئة، وتحركها هذا يعني انهزاماً وعاراً لغيلان، لهذا ما فعلته كمد سوف يحرك شجرة العوسج وسيسمع زحفها هذا العالم الآخر الموازي الذي سيهب من جديد لمحاربة غيلان وجيشه..

يحكى أن السفر لتلك الأرض مسافة يوم يقطع بها صحراء طويلة حتى يصل، ونقصد بهذه المسافة للآدمي حين ينوي الوصول إليها إن استدل الطريق منذ بداية الصحراء حتى الشجرة مسافة يوم آخر ..

لا أحد يصل دون أن يرشده أحد حماة الأرض.. فهم من يعرفون الطريق لها وإلا يموت من يجيئها عطشاً وجوعاً وتأكله حيوانات البراري.. أو يتحلل جسده تحت أشعة الشمس الحارقة..

من يعرف العوسج لا يجرؤ على الذهاب لها .. لهذا تجيء لها الأرواح المتعبة التي تبحث عن مأواها الأخير، لأنه لا طاقة لها لحرب مع جيش غيلان ولا حماة العوسج لهذا هم يصلون أرواحاً قد ماتت مسبقاً.

تُجمع عظام التائهين من الآدميين وعظام النافقة من الحيوانات وترص بعضها فوق بعض لتحديد حدود أرض العوسج منظر العظام يفر منه الإنس ويستدل به الجان على قوة وهيمنة قبيلة غيلان..

قبل أن تقرر الذهاب لها لا بد من أخذ الإذن من ملك مملكة العوسج، ليعطي لك الأمان ويأذن لك بالدخول.. لم يكن غيلان بالقائد العادي الذي يمتلك قوة وذكاء وحكمة، بل كان مخيفاً لدرجة أن الأرواح الشريرة تفر منه وتخاف مواجهته لهذا هو يأمرها فقط وهي تلبي دون جدال،

يقال إن لديه قدرة على انتزاع الأرواح الشريرة، حيث ينفيها دون عودة، هو يرعبها ويجعلها تخرج طوعاً وتنفيذاً لأوامره...لهذا أشارت له كمد أن يذهب للعوسج ..

المسألة متوقفة عند موافقة ملك مملكة العوسج، فهل يسمح غيلان الملك المعظم صاحب القوة والهيمنة لجبران الآدمي أن يأتي لأرض العوسج!

وهو عشيق ابنته كمد التي يحرم أن يمسها أو يسلب قلبها أحد !

وهو الذي عرف بما يفعله جبران وهدد كمد إن عادت له فسينفيها من أرضه ويسلب حقوقها الملكية !

ولا تزال كمد تأتي بالسر وتغطي على زياراتها هذه خادمتها مطيعة

كي لا يعرف والدها بهذا ويصب غضبه عليها وربما على جبران...

هذا الأمر الذي جعل كمد تتردد بطلب كهذا من والدها، ولكنها في الوقت نفسه تريد مساعدة جبران الذي بدأ يذبل ويتألم ويعاني ويعاقب نفسه بالحبس ويعاقب روحه بالموت المحكم، لقد اختار مصيره ولكن كمد تعشقه وتريده حيّاً ينعم ليبقى معها للأبد...

لم يكن هناك خيارات كثيرة أمام جبران.. فلقد توسل إليها أن تجد له مخرجاً فلقد بدأ السفاح ينهش بروحه ويجلده، بدأ يشعر أن عروقه تتورم وسينقلب إلى حيوان شرس بأي لحظة ..

غابت كمد ووعدته أنها ستعود ومعها موافقة والدها.. وإن كلفها الأمر حياتها..

وظل جبران يعاني ويواجه هذا السفاح وحده..

عندما يفكر بك محقق

فهو يريد أن يأخذك بنزهة خاصة..

وعاد المحقق وبجيبه الكثير من الأسئلة لم يتسع لها دفتره الصغير الذي معه، طرق باب منزلي وبهدوء تفضل للداخل ودون أن أقدم له الدعوة..

دخل وهو يتلفت وكأنه يفتش عن رؤوس أموات معلقة أو معلاق حديدي كالذي عند كارل، ولكنه دخل وهو يشتم رائحة الموت، وكأن أنفاس من قتلتهم تلف بحمى منزلي وتجلب لي أنوف المحققين..

جلس على الأريكة وسألني : هل الوقت مناسب للحديث معك ؟

أجبت بوجه متعب :

- يبدو أنك قررت هذا والدليل أنك أمامي الآن..

لن أطيل عليك، هناك شاهد جديد في قضية عامل النظافة الهندي أباها الذي مات مقتولاً منذ أشهر.

- عن ماذا تتكلم ؟

لا تتعبني أنت تعرف جيداً من أقصد

وهل أباها وجدته مقتولاً في غرفة نومي ؟

- جبران (يصرخ المحقق بوجهي ويطلب ويطلب مني أن أوقف هذا الهزل)

- لكني

رفع يده بوجهي وقطع كلامي وقال :

يحق لك توكيل محام وتيقن من أن يكون جيداً بما يكفي وغداً موعدك صباحاً بمقر الشرطة وأنت تعرف مكتبي جيداً..

نهض من مكانه وهو يضع يده على مسدسه ويمشي من جانبي قريباً مني يكاد يلتصق بوجهي، وقال : هذه المرة لن تفلت منها أيها الجرذ وخرج..

أغلقت الباب واتكأت على مقبضه من الخلف وقلت : لن أموت بداخل زنزانة، يبدو أن النهاية اقتربت، وهذا المحقق لن يجعلني أفلت منها..

سوف يجعلني أقر بكل ما فعلته وكأن تضخم أرصدة النوم يشي بي أيضاً..

لم أفكر بشيء إلا الهروب لأرض العوسج .. لن أنتظر عودة كمد لتأخذني، ولن أنتظر الموافقة من غيلان، ولن يقتلني الحماة ولن أفر هارباً خوفاً من الجان وكيف وأنا حبيبتي جنية..

لكن لا بد أن أنتزع هذا السفاح من داخلي قبل أن يغلق علي بزنزانة فيقتلني هو ويخرج يتمشى في شوارع مدينتي بسعادة

لقد خرجت فور ابتعاد المحقق من المنزل، لم آخذ شيئاً معي، أجهز نفسي لرحيل دائم كل ما أخذته هو مفتاح سيارتي، أتلفت حولي وأضرب على جيوبي أتفقد هل نسيت شيئاً ؟! رغم أنني لم آخذ شيئاً لكنه الهروب من الموت والسجن..

وقعت عيني على مذكرات زينة لكنعان، توجهت لها مسرعاً، أخذت قلماً ونزعت غطاءه بأسناني وبيد مرتجفة كتبت على الصفحة الأولى منها:

(أنا رجل مسكين يسكنني سفاح مرعب، لن أدعه يقتلني ليخرج ويتمشى في شوارع مدينتي ،فرحاً، أنا من سيخوض الحرب هذه المرة، ولن أكتب هزائمي كما فعلتِ يا زينة مع كنعان)

تحتاج لدليل واضح وطريق معبد وبوصلة فالدليل الروحي لن يوصلك لوجهتك ...

لقد قطعت مسافة ساعات الآن تجاوزت ثلاث ساعات ولا يزال الطريق طويلاً، إنه الشعور وكما يدلني حدسي للوصول للعوسج، لأرض كمد.. كل ما يقلقني هي نقطة التفتيش بالطرق والتي تبعد عني أميالاً الآن.. كنت أخشى أن يكون المحقق قد أبلغ عن اسمي ونشر صورتي وربما استعان بكلبة السيدة بهية، فهي تشتم رائحتي على بعد أميال وبهذا يكون الإمساك بي سهلاً، لهذا قررت أن أسلك الطريق الصحراوي وأتوغل به لعلي أصل للعوسج وقبل مغيب الشمس..

الشمس لا تزال تتوسط كبد السماء أشعر بها فوق رأسي بعد أن توقفت سيارتي وغرست عجلاتها بالرمال، لقد نفدت كل محاولاتي لإخراجها لكن دون جدوى، حضرت بأظافري قبل أصابعي، لكني غير ماهر بطرق الصحاري والخلاص منها، كان سام هو دائماً يفعل كل شيء بكل رحلة برية نقوم بها معاً، رأيته مرة يحفر بجانب العجلة ليخرجها، لقد فعلت مثلما فعل غير أني وصلت بالحفر إلى ما أستطيع معه أن أدخل ذراعي كاملة ولم تخرج السيارة بعد أعرف أنني فاشل وكثيراً ما كان سام ينقذني، لكن لا مجال للمحاولة الآن وعلي الاستسلام، أشعر أني اقتربت من العوسج، لهذا حملت جسدي النحيل ورأسي المكشوف وأقدامي المتعبة وبدأت بالمشي، ومع كل خطوة يتجدد كل الوجع بداخلي، وكأني أود أن أحملني لأخفف علي، أتكئ على ركبتي تارة وأنبطح تارة أخرى وأقوم وأكمل خطواتي..

لقد بدأ حتى لعابي بالتناقص أشعر أن لعابي لن يفرز مرة أخرى من شدة العطش والتعب وربما لأني ألهث من حرارة الشمس، تذكرت حكاية كل

العظام التي تحيط العوسج ، فعرفت أن النهاية اقتربت فبدل أن أكون لاجئاً لها أكون سوراً يحاوطها !

انتزعت من رأسي فكرة الموت، لقد كان التفكير بالموت لا يرعبني بقدر ما أنني أشتم رائحة أباها وكأنه واقف على رأسي وربما يطل علي من آخر الصحراء بوجه عريض وفم يضحك، ينتظر أن ألحق به. لقد جن جنوني وثارت روحي وضربت على صدري وقلت : هيا يا جبران، لقد بدأت الحرب مع هذا اللعين الذي بداخلك لن أجعله يتمكن منك.. لن أجعل وجه أباها يستمر بالضحك ليختفِ هذا الوجه اللعين من أمامي فوجهه احتل نصف الفراغ الذي أمامي لقد اقتربنا وسوف تأتي كمد بموافقة غيلان لدخول أرض العوسج وها أنا قريباً منها لن تتكبد عناء الذهاب لمنزلي، الأمر لا يكلف غيلان شيئاً هو فقط عليه أن يأمر اللعنة بالخروج من جسدي وسوف تفر هاربة من جسدي ومن مدينتي كاملة..

أقولها وأنا أبتسم بفم مفتوح وأمسح التعب عن وجهي الغبار من بين تجاعيد عينيّ..

الأمر لن يكلفه شيئاً أعرف هذا، فكيف وهو طلب من ابنته الوحيدة كمد والتي سخر لها حاشية يحرسونها، وحاوطها بحب واهتمام..

لن يرفض يا كمد لن يرفض ثم وقفت ووضعت يدي مجدداً خلف ظهري متعباً ورفعت رأسي للسماء وصرخت : كمد أنا هنا !

هل تسمعينني ؟

صرت أصرخ وأنا أتلفت حولي

لا وجود إلا للرمال فقط، لا شجرة ولا عظام ولا أرض ولا حتى حافلة تنقل الأرواح لأرض العوسج لا أحد سواي أنا هنا وفوقي تماماً شمس تغلي، وحشرات جائعة تنتظر أن أسقط لتطبخني الشمس وتتناول هي لحمي مشوياً لأنتهي بثوانٍ !

لم أتحمل فكرة الموت فضربت على صدري ثانية وقلت :

هيا يا جبران أكمل الطريق

إما أن تقتل اللعين بداخلك وإما أن تجعله يقهقه الآن..!

صرخت مرة أخرى أجرب صوتي الذي كانت أمي تقول لي إنه عال ليسمعه بائع الغاز بالحي المجاور

كمد أنا هنا

أنا هنا يا كمد

هل تسمعينتي ؟

- لن تسمعك ولن تأتي، يا مسكين يا جبران

أسمع صوتاً يتردد خلف أذني، أتلفت ولا أجد أحداً.

فقلت :

سآتي كمد رغم أنف العالمين.

أقولها بغضب

- صوت ضحكات عالية ثم قالت : رغم أنف العالمين ولكن ليس

رغم أنف غيلان يا مسكين.

من أنتِ ؟

ألتفت أبحث عنها

وإذا بخدها السمين الملاصق لرقبتها وعينيها الضائعتين وسط دهن وجهها إنها زاهية جارة أمي تلك الجارة اللعينة

- ما الذي تريدينه مني ؟! عودي لقبرك

سوف أدفع بالعوسج بعد رحلة كل هذه السنوات، لكني كنت أنتظر أمك لتأتي معي، عرفت أنك أيها الجرذ من قتلها، لقد قلت لها : أسقيه الدواء من العرافة وليمت بسلام، لكنها رفضت وأبقت عليك لتكون بلاء وغثاء وقرفاً على الجميع !

- اذهبي، موتي، ارحلي عني واتركيني!

أقولها وأنا أضع يدي على أذني أصمها كي لا أسمع غثاءها وحديثها، لقد كانت وباء في طفولتي فما الذي أعادها لي هنا من جديد؟!!

هل يعاقبني الحياة بظهورها أمامي

أم أنني اقتربت من أرض العوسج؟!

رفعت رأسي وإذا أرى شجرة العوسج من بعيد، بدأت تظهر لي تدريجتاً ما وصفتها لي. كمد بالضبط..

ضحكت ضحكة الخائف الذي وصل للتو لمخبئه الآمن..

لعلها تختفي من خلفي كل وجوه الأموات بأصواتهم وحكاياتهم السخيفة.

صرت أعجل بالخطا وأنادي : كمد أنا هنا لقد وصلت يا كمد! أمشي خطوات وأتعثر بأخرى أحبو مرة وأتكئ على أطرافي مرة أخرى..

وصلت أخيراً للعوسج، وسط هذا الهدوء المخيف بالصحراء.. لا عظام تحاوط العوسج ولا حماة.. صرت أحفر بأظافري حول العوسج لعلي أثير غضب الحياة لعل هناك من يأتيني بكمد أو يخبر غيلان عني.. لقد حفرت كا فعلت حول عجلات سياراتي لكن هذه المرة كان

الحفر ليس لأخرج عجلات وإنما لأثير غضباً لأصنع معجزة، وربا

لأبدأ بحرب

لكن لا أحد..

لا أحد غاضب

ولا أحد ثائر

ولا أحد صرخ بوجهي

ولا جيش تحرك لمقاتلتي!

سقطت على ظهري متعباً وعيني للسماء وما بين الشمس وبين أغصان العوسج المتيبسة الشوكية.. بثمارها الحمراء المدورة الكرزية وكأنها رؤوس شياطين، تخافها ولا تجرب تذوقها

أصبحت جثة هامدة بلا حراك، نسمة هواء قادرة على تقليبي أشعة شمس قادرة على اختراقي أنهكني العطش وتيبست روحي، هل شعرت يوماً بهذا الشعور ؟! أن تيبس عروق قلبك لوجعك وليس لعطش، لانتظار طويل لا تعرف متى ينتهي، لرحلة غادرتك بلحظتها الأخيرة وهي تحمل معها كل حقائبك وهويتك ومالك، يبس بداخلي مهيب، ويبس شفاه محزن، تذكرت الباب الذي أغلقته أمي علي لتعاقب شيطاني عندما طلبت منها جارتنا البدينة زاهية أن تعاقب شيطاني بالجوع والعطش حتى يموت.. ها أنا أموت وشيطاني يقهقه فوق رأسي!

تذكرت شربة الماء المتدفق بفم كنعان، والذي خنقته وكتمت أنفاسه قبل أن يبتلع ماءه ويروي عطشه بعد وجبة الفطائر المحلاة، ما أنا أموت عطشاً يا كنعان اقتص مني كيفما تشاء، فلقد حفظت كل رسائل زينة ولست نادماً على قتلك، غير أني أموت عطشاً وكأن الله يذكرني بما فعلت بك..

تذكرت حلم العامل الهندي (أباها) بالعودة لدياره بعد أن أشقاء الغياب.. ها أنا أموت مغترباً وقتلتني الوحدة. أنادي على من كانت لي الجميع ومن لا أعرف سواها، أنادي على كمد حبيبتي التي ظننت بها خيراً وحسبتها معجزة مثل آلهتك البقرة، كلانا خُذل يا أباها

تذكرت جارتنا العجوز بهية التي نظرت لي بنظرتها الأخيرة ورأسها يتراشق دماً أحمر، فأغلقت آخر منفذ للحياة لها، ها أنا أُغلق علي آخر منفذ للنجاة !

لقد هربت من تحقيق بموتك، خوفاً من موتي، لكني أتيت لموتي بكامل قواي، لقد حظيتِ بقبر ومراسم دفن وعزاء، لكني لن أحظى لقد بشيء، ستبقى عظامي للخلاء، للطيور الجائعة والحيوانات الضالة، لقد كان خلف نظراتك دعاء مهيب لم أفهمه!

لقد تذكرت صرخات ابنة المدير بعد أن قتلت والدها، ذاك الصراخ الذي يأتيك مهزوماً يحمل خيبة كبيرة وثقلاً ، أكبر، يصيح بوجع لا مفر منه إلا إليه وها أنا أسمع صراخاً بجانبي لا أعرف لمن لكنه صراخ ناعم.. صراخ لصوت أعرفه تحدثت معه وسمعته يوماً يضحك موجع ذاك التشابه، عندما تسمع صوت صراخ من حنجرة اعتدت على ضحكاتها !

الصراخ لم يتوقف ولا البكاء إنه يصب في أذني الآن.. التفت برأس ثقيل يكاد لا يتحرك إلا بمشقه وجهد وشفاه بيضاء متشققة ودم متخثر بشقوقها، ووجه مغطّى بالرمل ما بين التجاعيد الممتدة على الجبهة وحول الشفاه والعين العين التي تودع الحياة..

أنظر

وإذا هي كمد.

كمد بجانبي تبكي وتصرخ لحالي..

تتحسسني مرة وتضرب على الرمل بكلتا يديها مرة أخرى..

تبسمت فرحة بوصولها ولم أعِ بعد سبب بكائها، رفعت لها يدي المتدثرة بالرمل، مسكتها وضمتها لصدرها وبدأت بالبكاء مجدداً وهي تشتمها وتقول :لا تمت أرجوك ابقَ هنا...

- أين والدك ؟

أسألها بصعوبة وكأن سكيناً بحنجرتي تشق كل مخرج لحرف أنطقه ساعديني على النهوض لنذهب له !

فزادت بالبكاء ودمعها يسقط على صدري وأشعر بحرارته، تنام مرة على صدري ومرة تبلله بدمعها تتحسس ملامحي مرة وتمسح عليها مرة أخرى لقد كانت تودعني ولم تكن تنوي أن تساعدني للخلاص !

للذهاب لغيلان ليخلصني ..!

وضعت رأسها على صدري وقالت :

سنموت معاً...لقدر فضني والدها غيلان كبير الجان وسيدهم صاحب إمبراطورية العوسج، رفض أن يهبني الحرية، رفض أن يدخل رجل مثلي العوسج وقرر أن يعاقبني كوني إنسيّاً أحب ابنته وأغواها، سلب روحها وقلبها وعشقها، وهو الذي كان يبني الآمال لتكون كمد هي الوريث الحقيقي من بعده..

لقد بدأت شجرة العوسج بالتحرك، وخاف أن يعرف بهذا الأعداء من العالم الآخر، لهذا عليه التصرف حيال كمد.

رفض وعاقبها بالطرد إن لم تبتعد عني وتنسَ أمر جبران بأكمله، تنسَ لعنته وما حل به، تلك اللعنة التي ستجلب له العار وربما الدمار لمملكته، فالقتل عار وجريمة، فما بالكم بشخص قتل والدته؟! لقد أخبرها أني أستحق الموت وأن وجودي بأرض العوسج هو النهاية لفعلتي الشنعاء بحق الأبرياء..

لقد توسلت له كمد بكل ما أوتيت من بكاء ورجاء وأخبرته أن كل ما فعلته هو بسبب السفاح المرعب الذي يسكنني وأن كل ما تريده لي هو تخليصي منه ..

لكن والدها غيلان رفض وبشدة وعليه فقد عقد مجلساً اجتمع به كبار قادة أرض العوسج وأشهدهم جميعاً على طرده لكمد من مملكة العوسج وسحب كل حاشيتها والخدم والحرس وأن تعود كمد لصورتها الحقيقية..

وليست بصورة كمد الابنة الشابة الجميلة..

ربة المنال شفان بنتا لقد وافقت كمد على شروطه وقبلت بطرده من مملكتها، وعادت لجبران لتدافع عن حبها لرجل إنسي.

أمسكت بيد كمد وعيناي تلقيان عليها النظرة الأخيرة.. فلا حيلة لي ولا قوة، فكيف سأفر من اللعنة وأنا بأرض العوسج مطرود مهزوم مع حبيبة سُلبت حريتها وجمالها وقوتها لتكون معي كما هي أرادت لا كما أنا أريد،

أنا أشعر بوجع الموت يتصاعد من أخمص قدمي ويسرع ليعتلي جسدي البالي، حرارة تشق باطن قدمي لتسير وتشد معها كل عرق ينض، وجع لا يمكن وصفه لكنه ينذرك أن لك الحق بأن تقول آخر كلمة وربما أن تنظر آخر نظرة.

أغمضت عيني لثوانٍ وفتحتهما بجهد مرة أخرى وأخيرة ويد كمد ممسكة تشد على يدي

اليد يد كمد ولكن الوجه كان وجه العرافة وجوم..!

انتهى

تم بحمد الله..

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

ميساء طه.
عَزة المحمد.
أشرف غالب.

العوسج

اسمي جبران في العقد الرابع من العمر، لا شيء يستحق أن أذكره عني، ولا سيرة جديرة أسردها عن نفسي، شخصٌ عادي لكنهُ ولد بلعنة تسكنهُ.

أشعر أنَّ هناك سفاحًا بداخلي، يتمددُ داخل جوفي، يشتهي القتل، ولا ينام كثيرًا، ودائمًا ما يعاقبني بالأرق!

أنت لا تدرك ماذا يعني أنك ولدت كإنسان وتحولت يومًا ما إلى مسخ لا يراه أحدٌ سواك، أنظرُ دائمًا للعنق قبل الوجه، أراقب النبض واشتهي أن أضع أصابعي عليه لعلي أسكتهُ فقط...

لست قاتلًا أنا مجرد رجل مسكين! يسكنني سفّاحٌ مرعب سيقتلني يومًا ما ويخرج ليتمشى في شوارع مدينتي بسعادة.

9 786037 391403

ضاد
t.me/twinkling4